التوطئة

وحي الله حق . كلُّه خيرٌ وهدى ، وسلام للانسانيـة جمعـاء، وهل يوحي الله الرحمنُ الرحيم ،خالق السموات والارض والاكوان، إلا الهدى والرحمة والسلام والخير ، ووحي الله له آياته ودلائله الناطقة ؛ على أنه من الله ، وأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل، والحبُّ الذي لاتشوبه بغضاء، والخير الذي لا يخالطه شر .

أجل ، تلك الآيات ،وهاتيك الدلائل ، التي نراها صادقة كل الصدق، في حياة مؤسسي الاديان العالمية الكبرى ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وفي تعاليمهم الموحاة ، هي التي تقيم الانسانية الكاملة ، والسلام العام والحب والاخلاص،على دعائمه المثلى . تلك الآيات المشرقة وهاتيك الدلائل القوية المثالية،هي التي تجعلنا نؤمن أن الوحي الآلهي ،منذ أن هبط به الروح الامين، على ادريس عليه السلام ، إلى مهبطه على خاتم الانبياء ، محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، هو هو في أهدافه الاصلاحية ، وغاياته الخيّرة النبيلة ، وهذا شأن فروع الوحي المنبثقة عنه ، وهي وإن تشعبت مراميه هنـا وهناك ، فانها تضمها جميعا هاتيك المثل ، وتلك الدعائم ،فاليهودية وفروعها،والمسيحية وفروعها ، والاسلامية وفروعها ، جميعها ترمي إلى هدف واحد فذ ، هو تقويم أخلاق الانسانية ، وتهذيبُ سريرتها ، وإبادة أحقادها وأغلالهـا ، والسيرُ بها إلى الكمال الانساني الممكن . ذلك لأن سيدنا موسى وسيدنا

المسيح وسيدنا محمد، صلوات الله عليهم، قدموا للانسانية زيتا مقدساً واحداً، مستقى من شجرة الوحي العليا ، التي « أصلها ثابت وفرعها في السماء » وبهذا الزيت المقدس استضاء مشيدو تلك الفروع الكريمة ، حول الاديان الثلاث، ولم يقصدوا من تلك الفروع المتشعبة، سوى هدف واحد فذ ايضا ، هو عين الهدف الذي من أجله أنزل الله وحيه ، وأرسل رسله، وما ذنب أولئك المشيدين العظام ، إذا جاء بعض متأخري أتباعهم ، فشرقوا بالطفيليات وغربوا ، وأقاموا حول تلك الفروع الكريمة شروحا غريبة ، وتأويلات بعيدة ، جاءت بها عبادة الحرف ؟ !

وقد أخذنا على أنفسنا ، أن نقدم الاديان السماوية الثلاث ، في أثوابها الوضاءة المشرقة ، بكل ما في قلوبنا من إخلاص لها وللانسانية ، وحب للوحي ، وإيمان وصدق بالله ورسله جميعاً ، صلوات الله عليهم وسلامه، وإكبار لكل تلاميذهم المخلصين الابرار ، لنطهر أنفسنا بنور ذلك الزيت المقدس ، ونتخذ من اخلاصهم وإنسانيتهم، إخلاصاً وإنسانية، لنطفئ أوار المادة المشتعل في صدورنا ، والبغضاء والاحقاد ، التي تجعل الله غير راض عنا ، وتجعل نسبتنا اليهم غير صحيحة . كما تجعلنا محلا ، لصرامة أخذ دينونة الدنيا ، قبل الآخرة .

وقد سبق لنا ، أن قدمنا باقة متواضعة من الوحي الالهي، الذي عم الشرق الاقصى نوره، وهدى أجياله ، في كتابنا « دين ابراهيم » وشجعنا ما لاقينا من اصحاب المستشرقين، ورجال الاديان والعلماء، من إقبال وتقدير،

على أن نقوم بهذا الواجب تجاه أدياننا العالمية الثلاث ، اليهودية والمسيحية والاسلامية ، وقد رجعنا الى روح الوحي الآلهي ، الذي أنزله الله على مؤسسيها ، والى الفروع الكريمة ، التي نشأت حولها [illegible] وجهودنا ، لنعرضها للناس في كتب ثلاثة بالعناوين الآتية : « اليهودية بين الرابيين والقرائين » و « المسيحية بين كنيستي الشرق والغرب » و « الاسلام بين الشيعة والسنة » . مبتهلين إلى الله تعالى ، أن يجد إخواننا أهلُ الاديان الثلاث في هذه البحوث ، كل ما يرجونه من ايمان صادق ، وإنسانية مثالية . وروح طيبة ، وإيمان وحب لله وكتبه ورسله وأتباعهم ، إذ وجدنا بعد التجرد للدرس النزيه ، أن الله ما أوحى إلا الخير للانسانية جمعاء ، وأن الله ما أوحى إلا الاصلاح والتسامح والتفاهم . ولكن الذي يجعلنا نطمئن لهذا الوحي دون ذلك ، هو سلطان التوارث ، وجاذبية ايحاء الآباء والاجداد والمجتمع . لا لأن طريق هذه أثبت علميا من ذلك . على أن الناس قلما يدرسون الطرق العلمية التي وصل بها اليهم الوحيُ . ونحن ـ والحمد لله ـ نعلن ايماننا الصادق ، بأن كل ما أوحاه الله على رسله حق ، وأن كل مؤسسي فروع الاديان ، انسانيون بررة ، كما نعلن أننا جعلنا الله امامنا والحقَّ رائدنا ، والعلم قائدنا وحب الانسانية والسلام هدفنا في كل ما نكتب .

وعقيدتنا التي لا نحيد عنها ، أن فروع الاديان العالمية الكبرى ، جميعها حق مرتكز على دعائم الوحي والعلم نفسه ، وان كان هناك من باطل الطفيليات فهو من أنفسنا لا من صميم الوحي الآلهي .

أجل هذه دعائم الوحي تنادي صارخة « والنبي الكاذب هو ذنب

يقطعه الرب » (١) « المتكلم بالكذب لا يثبت امام عيني » (٢) « كل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى في النار » (٣) ، ذلك لأن زاعم النبوة له من الله في الدنيا النار والكبريت والهاوية ؛ فضلا عن عذاب الآخرة (٤) « ولو تقوّل علينا بعض الاقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين » (٥)

وخلاصة نصوص الكتب الثلاث ، تشرح مبدءاً واحداً ، هو أن العمارة الدينية . لا تشاد أركانها إلا برخصة من الله .

وهذه نظريات العلم تؤيد عقيدتنا ، وحسبنا أن نقدم لقرائنا ، كلمة العلم التي بسطها الكاتب الاجتماعي الانكليزي « توماس كارليل » حيث يقول في كتابه « الابطال » : « ان الكذب محال أن تتم به مؤسسة دينية عالمية » ، يعني أن هذه العمائر الدينية الكبرى ، التي شيدها مؤسسوها الاول ، ما كان ليتم لهم تشييدها ، على هذا الاحكام الخالد والتوفيق الا بالصدق .

وفي النهاية يلذ لنا ، أن ندلي إلى قرائنا بقصة فقراء الهند الثمانية عشر (٦) .

يقولون : ان كلّ واحد منهم ، وصلُ الى بحيرة « فشنو » المقدسة ،

---

(١) اشعيا ٩ - ١٤

(٢) مزامير ١٠١ - ٧

(٣) مت ٣ - ١٠

(٤) يوحنا اللاهوتي ١٦ - ١٣ و ١٩ - ٢٠

(٥) سورة الحاقة

(٦) لفيلسوف الفريكة امين الريحاني اللبناني قصة تهدف الى ذلك راجع الريحانيات . وراجع ، كتابنا دين ابراهم .

من طريقها الوحيد، الذي لا طريق لها سواه ، طريق التجرد والفقر والتزهد والتوحد ، واستطاع أن يحضر كوباً من الماء المقدس المشع ، المعروف بنوره الآلهي ، ذي الطابع الخاص ، وقدموه لاتباعهم على اختلاف أزمانهم ، ولكن أولئك الاتباع انشقوا على انفسهم ، وأخذ كل فريق منهم يعتبر أن ماءه وحده ، هو المقدس ، وأن حامله هو الصادق ، وأن ماء سواه ليس كذلك ، والماء واحد والطريق واحدة ، و كل حجة اولئك المنشقين أن آباءهم عرفوا هذا الفقير دون ذاك ، ولكن « براجاباتي »(١) أطل على الجميع ، ونادى بصولة صوته ، الداوي في العوالم : « فقرائي جميعاً ليس لهم إلا طريق واحدة ، فالماء مائي ، والطريق طريقي ، ولا يضير أن بعضهم جاء خلف بعض ، لأن حاجتكم الى الماء تظل دائماً جديدة » .

فصمتوا جميعاً مطرقين مفكرين ، حتى انجلت غمرة ذلك الصوت الداوي ، ثم ثابوا الى نفوسهم وبواعثها ، وأنانياتها ، فعادوا الى خصوماتهم ، ونسوا موعظة « براجاباتي » ، كما نسوا أنه لا يزال يراقبهم ، وحين رأى إصرارهم ، على الاصغاء لاصوات آبائهم ، واجدادهم دونه ، سلط عليهم رئيس الابالسة « را كيها » ليقيم عرشه على بحيرة من دمائهم النجسة

(١) اي الخالق العظيم

جلال هذا العمل

قد فطن رجال الفكر والدين والعلم في العالم الاسلامي ، الى وجوب أداء رسالة الايمان بالله، بكل ما تشتمل عليه، من مثل عليا و كمال، والى خلع الخلافات الطائشة الحمقاء ، التي أوجدها الجهل ، ولا تمت الى أصول الوحي الآلهي بسبب أبداً ؛ كما فطن رجال الجامع الروحية ، في أوربا ، وعاقدو مؤتمرات الاديان ، من فلاسفة ومفكرين ورجال دين ، الى وجوب تأييد دعوة الايمان بالله ، بما وضعوا من مؤلفات قيمة وصحف ، فحفزتنا كتاباتهم السامية ، الى المشاركة في هذا العمل ، بقدر المستطاع ، وأثارت في أنفسنا، خير الدوافع واكرمها ، فسهرنا على وضع هذا الكتاب القيم ، وبذلنا في سبيله جهوداً كبيرة ، فهو نبتة كريمة ، تعهدتها سقيا السماء ، وفاضت بها عبقريات الكتّاب والمؤلفين ، في الشرق والغرب . ونحن حين نقدّمها لتكون القسم الثاني من سلسلتنا « نواة الوحدة الدينية في العالم » نقدمها معترفين بتقصيرنا ، تجاه واجب دعوة الايمان بالله . ونؤكد لقرائنا ، أن هدفنا ـ يشهد الله ـ ، خالص لوجه الايمان بالله ، وكشف جمال الوحدة الدينية ، المجهولة لدى كثير من الناس ، بريئين كل البراءة ، من الاساءة الى الواقع والمعرفة والعلم ، إذ نؤمن بخير الانسانية واجتماعها وسعادتها . فاذا كتبنا عن الاديان أو فروعها ، فنحن نكتب عالمين كل العلم ، أن الله خالق هذا الوجود ، الذي أذهل العلماء عن أن يحيطوا به ، محال أن يشتمل وحيه ، على شيء من ضرار ، أو تمزيق لوحدة الانسانية ، مما لا يليق نسبته

الى جلاله وعلمه الازلي . لذلك كنا إذا ألفينا في بعض الكتب التي ندرسها، شيئاً يمج ذكره ، ويستحيل أن ينسب الى الله ، تركناه ، إيثاراً لتضميد جروح الانسانية البليغة ، وحبا في تهذيبها ، وخيرها وإسعادها، هاتفين بقول الشاعر الحكيم :

«وإن مررت بأشجار لها ثمر   خذ الثمار وخل العود للنار »

على أننا نعلم ، لو قدمنا لأدنى الناس ثقافة ، كتاب « الطب والرحمة» المنسوب للسيوطي ، قائلين ؛ هذا من مؤلفات بقراط أو ابن سينا أو باستور ، لكان تمزيقه وطرحه في أوجهنا ، الجواب الحاسم على جهلنا ، اجلالا لهم عن نسبة ذلك الهذيان ، وتلك الوساوس . فما بالك بالوحي الآلهي . وجلالهُ وسموه ومثله العليا وطابعه الخاص، حقيقةٌ مشرقة فيه ، وهذه الحقيقة هي التي تهدينا اليه، وتجعلنا نقتطفه بنهم وشوق ، كلما الفيناه في حديقة روحية، أو فرع مذهبي كريم ، لنقدمه للانسانية بكل ما الوحي من جلال وسمو ونور .

واجب اهل الاديان الكبرى في العالم

ان واجب أهل الاديان الكبرى اليوم ، هو أن يخلصوا للجهاد في سبيل الايمان ، بالله الخالق العظيم ، وهذا الاخلاص ، لم يكن عصر من العصور ، في حاجة ملحة اليه ، كعصرنا هذا ، الذي طغى عليه ، مذهب الواقع الوجودي المادي ، فاشعل حربين عالميتين ، أبادتا ـ دون اجرام ، ـ ملايين الابرياء من البشر ، ولا يعلم الا الله ، ما ينتج من فظائع رهيبة ،

وإبادة وتدمير ، في الحرب العالمية المقبلة . وكبيرٌ في السذاجة والغفلة ، بل في الخطأ والبعد عن الله والعلم، أن يتحاجز ويتباغض، أبناء الأسرة الانسانية الواحدة ، في مثل هذا العصر العصيب . وروح المادية الواقعية ، ستبيد معالم الحضارة جمعاء ، ببركان الذرة ، وسيل « الهيدروجين »، ولا افلات من اعدام الجميع ، الا بنبذ احقاد المادة تحت الأقدام ، واجتماع علماء الاديان في العالم، للقضاء على تلك الاحقاد ، انتصاراً لله وللانسانية المهددة ، وللحق والسلام ، وحينئذ يستطيع الجميع ، ان يتكاتفوا ويتفاهموا ، اذ ـ بكل تأكيد ـ راية الله تظللهم جميعاً كشمسه .

على أن ، اول واجب عليهم ، ان يضمر بعضهم لبعض ، ما هو خليق بجمال الله ، الذي ينتسبون الى الايمان به ،وأن يدعوا أمراض فروع الاديان العالمية ، وطفيلياتها التي تسربت اليها ، فصرفت الانفس الضعيفة ، عن اصول الوحي، كما هي في منابعها الاولى ، تلك الامراض والطفيليات، التي طمست اضواء الاصول ، وألقت حولها الألغاز والاحاجي، وأماتت العقل والحرية الفكرية ، والفهم والتفاهم ، ومزقت الجامعة الانسانية كل ممزق ، وكان من نتائج ذلك ، أن جاء المذهب المادي ، ليجتث تلك الاصول من جذورها ، مختلطاً عليه الامر .

والواقع لو طرحنا أمراض الفروع وطفيلياتها ،وفهمناها بروح مؤسسيها الكرام ، وعقولهم الكبيرة، ونفوسهم المتسامحة ، وفهمهم العميق، لوجدناها أشبه ما تكون بالاصول من كل وجه ،لا توجب خلفاً ولا تنابذا ولا عداوة بين أهلها ، ولا شيء مما يزعمه أعشار المتعلمين ، المتعلقون بتلك القشور

والطفيليات ، اصطياداً وتسميما وكيدا ، ويشهدالله ، لولا صغارهم وتجارتهم باسم الدين ، لما نشأ أيٌ مذهب مادي في العالم ، وربا وتفاقم ، وأشعل غصن الزيتون ، وذبح حمامة السلام المقدسة مرتين .

واجب أهل الاسلام تجاه الايمان بالله

نعتقد أن البذل والتضحية ، في سبيل ايقاظ روح الايمان بالله ، وقتل المذاهب المادية الطاغية ، لم يكن واجب البراهمة والبوذيين او اليهود والمسيحيين فحسب ، بل كما هو واجب اولئك الدعاة الكرام ، واجبنا نحن أيضا ، وكيف لا يكون واجبنا ، والوحي ينادي « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (١) « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ، أن اتقوا الله » (٢) .

وقد بذل المسلمون الاول ، على اختلاف مذاهبهم ، كل امكانياتهم للدعوة الى الله ، كما رصدوا أنفسهم وما يملكون . فهذا سيدنا أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، يضحي بكل ثروته ، في سبيل الايمان بالله ، وهذا سيدنا الامام علي ابن ابي طالب رضي الله عنه ، يخاطر بنفسه ، في كل المواقف المشرّفة ، وهذا ولده سيدنا الحسن رضي الله عنه ، يتنازل عن بيعته ويترك الملك والسلطان توحيداً للصفوف وجمعاً للكلمة .

ونعتقد أن جميع أهل الفروع الاسلامية ، كالشيعة والسنة ، والزيدية

---

(١) النحل ١٢٥

(٢) النساء ١٣١ لينظر القارىء كيف يأمرنا الله بخدمة الانسانية مشتركين .

والعلوية ، والموحدين (١) والاسماعيلية ، والاباضية (٢) والعدوية (٣) ، الذين يستمعون نداء الله ، إذا قصروا في هذا الامر ، ولم ينهضوا ، ولم يساهموا مع العاملين في العالم ، في سبيل الايمان بالله ، نعتقد أنهم مسئولون ، عن كل المذاهب المادية الهدامة ، التي تدخل بيوتهم فتبعدهم عن الله ، وتبعد أنسالهم عن الروح الانساني الكريم ، كما أنهم مسئولون عن هوس المهووسين ، وضيق عقيلة الجاهلين ، الذين يهدمون بسوء فهمهم ، واستمساكهم بأمراض الفروع وطفيلياتها ، وانصرافهم عن الاصول ، ما بناه الوحي في العالم ، من وحدة انسانية وسلام وتفاهم كريم

الاسلام يبني مجد الانسانية

كم من لائمة حين يظن السطحيون ، من الدارسين ، الذين لم يتعمقوا درساً ، في نصوص الاسلام الاولى ، أنه يبسط سلطان العرب ، ويجعل دولة العرب ، ويفرق بين الشرق والغرب ، إنها كلمة رعناء ، تدل على جهل بالاسلام ، ونصوصه وتاريخه ، كيف يكون الاسلام كذلك ، وهو الذي نادي من أول يوم « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ،

---

(١) أطلق بعض الجهلة على الموحدين اسم «دروز» وهم لا يعترفون بهذه التسمية ، خطط الشام ٦ ـ ٢٦٩

(٢) ينتسبون الى عبد الله بن أباض ، وهم يقطنون حضرموت ، وناحية من تونس وطرابلس الغرب

(٣) ينتسبون الى عدي بن مسافر ، ويقطنون لواء الموصل وناحية من « اعزاز » . وهذان الفرعان أرجأنا الحديث عنهما الى الكتاب الثاني .

وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، انَّ أكرمكم عند الله أتقاكم » (١)
أما يقرأون في تاريخه ، أن « كافوراً الاخشيدي » (٢) العبد الزنجي ، الذي يأبى بعض متحضري هذا العصر ، أن يركبوا مع امثاله في عربة واحدة ، او يطعموا الى جانبه ،(٣) كان ملكا محبوبا في اكبر عاصمة في الشرق «مصر» وفيها معظم أبطال آل البيت النبوي . (٤)

أما علموا أن العشائر التركية ، التي كانت بوذية (٥) حين جاءت من اقصى الشرق ، ما كادت تعتنق الاسلام ، حتى صار لها باسمه ملك باذخ، على العرب أنفسهم ، استمر احدى عشر قرنا ، ابتدأ بأحمد بن طولون ، وانتهى بقيام الجمهورية التركية الحديثة ، مما لا نظير له في التاريخ على الاطلاق ، على أن قسما كبيرا من العرب ،لا يزالون منضوين رضى وطمأنينة، تحت رايتها ، في ديار بكر ولواء اسكندرونة وغيرهما (٦) ، فهل كان او

---

(١) الحجرات ١٤
(٢) نسبة الى سيده محمد الملقب بالاخشيد
(٣) هلال ديسمبر ١٩٤٨ ص ٤٥
(٤) تفسير الجواهر ٣ ـ ٧٢ ولا يطعن في مقامه أقوال المتنبي ، لان العداوة الشخصية ، لا وزن لها في المسائل الاجتماعية والعلمية
(٥) لتعرف على البوذية راجع كتابنا « دين ابراهيم »
(٦) الترك عشائر بوذية ، منتشرة من التركستان حتى التبت ، اعتنق بعضها الاسلام منذ عام ٩٢ هـ ومن اشهر زعمائها « سالورخان » الذي اعتنق الاسلام منذ عام ٣٥٠ وقد نشره بين عشيرته ودعاها «تركمان» اي الترك الكامل ،ومن هذه العشيرة الطولونيون الذين ملكوا مصر والشام ٢٥٥ - ٢٩٢ والاخشيديون الذين بسطوا سلطانهم على مصر والشام والحجاز ٣٢٣ - ٣٣٤ ,ومن هذه القبائل السلجوقيون الذين اسسوا بعد اعتناقهم الاسلام ـ دولا في فارس والشام والاناضول ٤٧٧-٦٩٩ والعثمانيون ٦٩٩ - ١٣٣٧ فتكون مدة تملكهم في المجتمع العربي على تقطع فتراتها ١٠٨٠ عاماً

يكون هذا في أمة من الامم لولا مثل الاسلام العليا ، التي تبني امجاداً للانسانية لا للاجناس ، ومع كل هذا التاريخ العملي المشاهد المحسوس ، وجد من قال يبني ملكا للعرب، لا لأن الاسلام كذلك ، ولكن لأنه هو اشتهى ذلك « قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير » « وتلك الايام نداولها بين الناس » (١)

ومن هم المماليك ، الذين أقاموا دولهم ، في المجتمع العربي نفسه ، أليسوا هم غير عرب ، (٢) وهذه الامة الفارسية الكريمة أما اقامت الدولة السياسية ، وأشادت ملكها وسلطانها ، في بلاد العرب أنفسهم حتى الآن ؟ (٣)

ألا إن تلك الاوهام الطائشة ، التي زرعها في أنفس بعض الاوربيين، أعشار متعلمينا ، هي نتيجة الجهل بمثل الاسلام العليا ، حتى كان مثلنا ـ ونحن نحمل دعاية القرآن الى العالم ـ كمثل الطبيب ، الذي يحمل اكسير الحياة الى المرضى ، ولكن حاله المزرية ، تدعو الى الاعراض عنه ، وعما يحمل ، لا بغضاً في الدواء ، ولكن جهلا بجلال قيمه وعن كنوزه .

---

(١) آل عمران ٢٧ و ١٤٠

(٢) المماليك ترك وشركس ، اقاموا دولتيهم في مصر والشام على انقاض الدولة الايوبية الكردية عام ٦٤٨ وسلموها للسلطان سليم العثماني عام ٩٢٣

(٣) امارة المحمرة العربية يحكمها حتى اليوم أمير عربي عامري ، سكانها نصف مليون نسمة ، وهي مربوطة بالدولة الفارسية ربطا مباشرا وتطلق عليها «عربستان». الرياض الحزعلية لعبد المسيح إنطاكي ١ ـ ٧

ونحن لا نعتب على الشعوب ، التي لم يتيسر لها ، أن تلم بالمعرفة الحقيقية، وتدرس واقع تعاليم الله في القرآن ، بالمقدار الذي نعتب فيه على أنفسنا ، إذ آمنا ولم نحاول أن نفهم النّاس، تلك المثل،على وجهها الاسلامي الصحيح ، وكان من جرّاء اهمالنا ، أن أمسينا حجر عثرة ، في وجه خاتم الوحي الالهي ، كما قال أحد علماء الالمان « الاسلام جوهرة والمسلمون غطاؤها » ولا سبب لذلك ، سوى اهتمامنا بشروح الفروع وتأويلاتها ، وبذل اوقاتنا وامكانياتنا ، بالسهر على بسطها ،وتنميتها ورعايتها ،وتخصيصها بالاوقاف والمكاتب،ولا نقصر في التقاذف والتحامل والاعتمادعلى الطفيليات المدسوسة اذا اقتضى الامر .

وقد أجمع المفكرون في الشرق والغرب أن المسئول عن كل هذه الكوارث . والحرب العالمية المادية . الطاحنة المدمرة . هم المسلمون . لانهم لم يقدموا للبشرية دواءها الشافي . الذي أنزله الله في القرآن . بل انصرفوا عنه الى أوبائهم القاتلة . وخصوماتهم الرعناء . كمن اخذ مفتاح المعرفة . فما دخل ولا سمح لغيره بالدخول .

وقد جاء في كتاب « الاسلام » (١) الدكتورين رحال و م . برالنا مايؤيد ذلك حيث قالا « وقد تيسر لنا مرة اللقاء ببعض علماء الاجتماع والنفس. فتناول البحث حقوق المرأة . والحب الاباحي . والامن العام . وقواعد الحكم في الراعي والرعية .... فكان جواب هؤلاء . « ان المسلمين بعدم مباشرتهم هذه القواعد . يقترفون جرما عظيما . لانها هي الغايات . التي

---

(١) ص ١٠٨

تمناها الفلاسفة » كما فطن الى عظمة القرآن. الفيلسوف الانكليزي الكبير. « هربرت سبنسر » (١) بعد دراسته له . فقال « دواء اوربة في القرآن ». وكثير ما أشار الى ذلك « برناردشو » في كتاباته عن الاسلام .

ولا ريب أن الذين ينعمون نظرهم . دارسين متعمقين أهداف نصوص القرآن . السياسية والاجتماعية والاقتصادية. يثبتون ذلك بوضوح. وقد أشار إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله « ان القرآن حبل الله المتين في الأرض ،لا تبلى جدته ولا تنتهى عجائبه . فيه نبأ ما قبلكم وخير ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل » .

وما اكتشفه أئمة الاسلام من أهداف القرآن . يسير جدا. فهو حسب مقتضيات عصورهم . ومطالب الاصلاح . أما اصلاحات عصرنا ومثله . وما تقتضيه بواعثه وظروفه . فانها لا تزال بكرا في القرآن . وواجب علماء الاستشراق والفلاسفة . وعلماء الاجتماع والتشريع . أن يستنبطوها من آياته ونصوصه . ويقدموها للانسانية . قبل أن يتفاقم الخطب . ويفدح الامر . هذا سيدنا الامام جعفر الصادق رضي الله عنه يقول « ما من أمر يختلف فيه المختلفون الا وله أصل في كتاب الله . ولكن لم تبلغه عقول الرجال » (٢) وابن عبّاس يقول « ان في القرآن معانياً سوف يكشفها الزمن » .

---

(١) متوفى عام ١٩٠٣ تاريخ الاستاذ الامام ص ٨٧٠

(٢) ضحى الاسلام ص ٣٦٣

كيف يستطيع المسلمون أن يساهموا في حرب المذاهب الوجودية المادية

لقد تخوف المصلحون الاجتماعيون في الشرق والغرب. من تفاقم شرور المذاهب الوجودية المادية . التي أوقعت البشر في لهيب الذرة ، وسيل (الهيدروجين) بل في ما هو أشد هولا وفتكا . ألا وهي الاحقاد الجهنمية التي بثتها تلك المذاهب. وسهرت على تعهدها . حتى ربت وغلت مراجلها في الصدور . واستطار شررها في النفوس . بل وأصبح لها دلائل من المنطق والفكر لدى أولئك الماديين . يوجهونها توجيها ويركزونها في الأجيال الناشئة . على أنها هي الحقيقة الخالدة . والشيء الواقعي الكائن. يبشرون بها في كل موطن ويشيدون بعثلها الصماء اصلاحهم الرجعي . الضيق المتحجر . حتى انقلب العالم محقونا بجحيم البغضاء والجشع الصارخ : الى التدمير والتخريب . واراقة الدماء والقضاء على الحياة والأحياء ... أما الله والأديان وكتب السماء وشرائع الوحي والعالم الثاني وكل ما يتصل بأدبيات الانسان الخالدة . فأوهام في زعمهم خلقها الانسان لنفسه . فحين يملنها فانما يعني نفسه اذ هي هو ! .

أجل . قد سقطت بالبشرية هاتيك المذاهب الوجودية الى وحول المادة المدمرة . وأصبحت الانسانية تهوي الى الاعدام العام بسرعة . ولا علاج ولا انقاذ بل ولا نجاة للأمم من ذلك . مهما توفرت لديها القوة والامكانيات . الا بالرجوع الى اضواء الوحي وتساميه ومثله وتسامحه .

وانسانيته وتقواه . وورعه وايثاره رضوان الله على كل شيء . ولا ريب أن المصلحين تخوفوا عواقب ذلك وحسبوا لها ألف حساب . فشرعوا يستعيدون النشاط الروحي . والايمان بالله . والدعوة الى السلام ليزحزحوا وطأة ذلك الشر ما استطاعوا . وما (الأونيسكو) وتأليفه الا آية ذلك . وواجبنا كمؤمنين بالله أن نؤيد وأن نساهم ، عالمين أن القول بغير عمل نفاق وخروج على آداب الوحي الالهي « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »(١) اذن فلا بد من العمل ولا بد من الاخلاص في الدعوة ، ولا بد من النشاط والتضحية ، وإنا نعلن اعجابنا بما يكتبه دعاة السلام من كبار المستشرقين والعلماء وبمقررات « الأونيسكو » في جلساته . على حداثة نشأته ، وما تقوم به الجمعيات الدينية في العالم ، من الحث والجد والدعوة إلى الله وبذل الذخائر في سبيله .

والآن نرفع اليهم هذا السفر ، الذي هو بعض نويات غرسهم السلمي الكريم ، علهم يقبلونه شبه مساهمة خيرة ، تكفر عن قصورنا ، في واجب الدعوة إلى الله ، متأدبين بتعاليم الوحي ، الذي أوحاه الله إلى رسله ، وجعله مناراً ، وهدى للانسانية جمعاء ، فما كان من خير وهدى وتسامح ومغفرة ، أخذنا به وأعلناه ، وما كان من باطل وشر وجفاء وسوء ظن ، أعرضنا عنه متأدبين بقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيرا أو ليصمت » ، ولا ريب أن الوحي كله خير « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »

---

(١) التوبة ١٠٩

« وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الارض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون ، قالوا :سلاما »(١) « طوبى للرحماء لأنهم يرحمون،طوبى لانقياء القلب،لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعي السلام » (٢) .

ونحن نعتقد ، أن هدى الوحي إذا خالط النفوس وجرى مجراه ، في توجيه الأميال والعواطف ، وكبت الغرائز واهتياجاتها ، أحدث أطيب الآثار ، وأنتج أكرم النتائج وأنبلها ، وكان منه الرجاء لتدارك الخطوب وتلافي الزلازل ، وإنقاذ البشرية من الهلاك ، ذلك لأن روح الوحي،تأتي على كل بواعث الغرائز الجهنمية القتالة،وتحول الضمير الانساني والأحاسيس والشعور إلى ترنيمات إلهية سماوية ، تحيي وتجمع وتؤلف وتحبب ،وتحول جحيم المذاهب المادّية ، الى جنات روحية وارفة الظلال ، نديّة النسائم ، سلامها دائم وعيشها سعيد .

ومفهوم للجميع ، أن البشرية اذا أحسنت الى نفسها صنعاً ، وآثرت الحياة على الافناء ، ورغبت في الخير وأعرضت عن الشر ، أي أحسنت وآثرت ورغبت في مثل الوحي العليا ، كان لها كل ما ترجوه ، على يد الانسان الكامل المنتظر « السوبرمان » .

هذا « برنابا » تلميذ سيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام يحمل ثروته كلها ويضعها تجاه أرجل الحواريين بكل خشوع وأدب لتكون لهم عونا

---

(١) الفرقان ٦٣

(٢) مت ٥ — ٧و٨و٩

سبيل الدعوة الى الله (١)، وهذا ابو بكر الصديق رضي الله عنه ، يحمل ثروته الطائلة ويضعها بين أيدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاذا قال له،ماذا ابقيت لأهلك؟أجابه باخلاص المؤمن الواثق برحمة الله وعطاياه: الله ورسوله .

والايمان بالله له دلائله الروحية الفذة العالية ومثله العليا ، في أعمال الناس وأقوالهم سواء كانوا مدنيين أو حكاماً .

هذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول لعامله في مرسوم ولايته: «لا تبيعن لهم رزقاً ولا كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ولا . . » فيأخذ العامل العجب ويقول :

ـ اذن سأعود فارغاً كما ذهبت يا أمير المؤمنين ؟

ـ لعودتك فارغا خير عندي ، فان الله أمرنا في كتابه أن نأخذ العفو وأن نأمر بالمعروف (٢) .

المغالاة والتجارة بالطفيليات

تكثر التجارة والمغالاة ، بطفيليات الفروع وأمراضها ، في العصور المنحطة ، وتظل أوباؤها تتسرب،الى النفوس المرورة،والعقول السطحية، والقلوب الواهية الخالية ، من فهم جلال عظمة القرآن . ومأتى كل ذلك ،

---

(١) أع ٤ ـ ٣٧

(٢) العفو هو ما لا حاجة اليه من اشياء الناس « الزائد » ، والامر بالمعروف اي بما عرف من مثل الاسلام العليا التي جاء بها الوحي .

سخافات موضوعة ، لا تمت الى أصل الوحي ، وأقرب مثل نقدمه لقرائنا قصة الأعمام ، التي اخترعها مروان بن ابي حفصة .

اشتهى أن يستغل الدولة العبّاسية وأن يربح على حساب اتجاهاتها وأميال ملوكها كل الربح فقال :

« أنّى يكون وليس ذاك بكائن
لبني البنات وراثة الأعمام

وقد أخذت هذه الفكرة الموضوعة الطفيلية ، التي أريد بها الربح ، مأخذ الحقيقة والعلم ، حتى أصبحت مذهبا ، يحتج به لدى الكثيرين . وإلا فما شأن الأعمام في مسألة الخلافة ، بعد قيام دولتين ، ولو كانت تبنى على زعمه فيما ذهب اليه، لطالب بها العبّاس نفسه في حياته، كما صارح المعتضد العباسي بذلك أبو الفوارس القرمطي حين قال له (١) .

ـ هل طالب جدكم العبّاس بالخلافة ؟

ـ لا

ـ اذن فبأي حق تطالبون بها ؟

ـ فصمت ولم يجبه ...

وقد كثر المؤيدون لهذا المذهب ، والناقضون له ، وتكاثفت حوله ربوات المؤلفات ، كأن بيت مروان هذا ، آية الله الخالدة ، التي لا يأتيها الباطل ، ومن العجب أن تجد حتى في عصرنا هذا ـ عصر الحرية والفكر والنقد النزيه ، وطلب المعرفة والواقع ـ من يلتبس عليه الأمر ، ويجمل

---

(١) ابن الاثير ٧ ـ ٢٠٢

لهذه الأقوال الطفيلية وزنا ، ويعتبرها ديناً ، وعلماً وتحقيقاً ، وإذا تعمقنا البواعث المادية في ذلك العصر ، ألفينا هـذا المذهب أغاظ الفاطميين وأشياعهم ، فما كاد المعز لدين الله (١) ، يتخذ قاعدة دولته مصر ، ويشيد مدينة القاهرة ، والجامع الازهر ، حتي ألغى صبغة ذلك المذهب ، من خطب الجمعة ، ووضع مكانه صبغة فاطمية ، في هذه العبارة « اللهم صل على عبدك ووليك ، ثمرة النبوة ، وسليل العترة الهادية المهدية ، عبـد الله الامام المعز لدين الله ، أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الطاهرين وأسلافـه الأئمـة الراشدين » . فقامت قيامة الدنيا في بغداد ، ولجأوا إلى وسيلة الطعن المجوجة ، في نسب المعز ، غير عابئين بقول رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، « النّاس مأمونون على أنسابهم » وكتبوا حولها المحاضر الطويلة والمؤلفات . فرد هؤلاء بالمثل . وهكذا تفاقم الشر ، وعظم الخطب ، والتوت الطريق على سالكها ، وكثر الوضع والوضاعون (٢) ، وظل هذا التطاحن ، الذي لا يمت الى الوحي الالٓهي بسبب ، قرنين كاملين (٣) ، وجماهير العامّة هنـا وهناك ، يحسبون أن هذا هو الاسلام ، الذي أنزله الله على خاتم رسله الهداية الانسانية ، ولو أنصف أولئك المتحزبون ، لسموا بأنفسهم وعقولهم ، الي

---

(١) كل ما نرويه من اخبار المعز ، راجع الى كتاب (المعز لدين الله) القاهرة مطبعة الشبكستي ١٣٦٨

(٢) راجع ترجمة عبد الكريم ابن ابي العوجاء في ابن الاثير ٦ ـ ٣ والبيروني ص ٦٨

(٣) اسست الدولة الفاطمية عام ٢٦٩ فوضعت يدها على المغرب وصقليـة ثم مصر عام ٣٦١ وانتهى امرها عام ٥٢٦

كتاب الله ومثله العليا ، وطرحوا كل هذه الطفيليات لأن الاسلام ، أكبر من أن يكون سبيلا للاضرار والاذى ، ورحم الله شوقي حيث يقول :

« الحق أكبر ملة وقضيةً   من أن يكون سبيله الاضرار »

والعجيب أن الاشياء التي تشاجر من أجلها الفريقان ، لا توجب مروقا ولا ما يشبه المروق ، كل ما في الأمر ، أن المعز أراد أن يتحصن بقرباه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويفيد منها ، فلجأ الى وسيلة الصلاة ، التي يدعو بها الناس في صلاتهم ، لآل البيت خمس مرات في اليوم ، لذلك كانت حملات العباسيين وأنصارهم ، لا سيما أيام القادر بالله ، (١) تدور حول الطعن في نسبه ، لحرمانه من الاستفادة من جلال النسبة ، الى ذلك الشرف النبوي ، فما أعجزهم أن يلحقوا نسبه بديصان المجوسي .

على أن كبير نقباء آل البيت النبوي في ذلك العهد ، أحمد بن الحسين الموسوي العلوي ، المشهور بالشريف الرضي ، كان جد فخور بنسبهم اذ يقول في بغداد على مسمع من بني العباس :

ما مقامي على الهوان بعيدا   وبمصر الخليفة العلويْ

ويا ليت هؤلاء المتهجمين لم يتخذوا طريق الطعن في الانساب للحط من اقدار الرجال ، وما أصدق أمير الشعراء في هؤلاء الحاسدين ، الذين

---

(١) هو القادر بالله احمد بن الحق بن المقتدر بن المعتضد ، جلس على عرش بغداد من عام ٣٨١ ه لعام ٤٢٢ وعاصر من الفاطميين ، الحاكم بامر الله ووالده العزيز وولده عليا ، وفي ايامه فشت الاساطير والاباطيل التي الصقت بالحاكم بامر الله وكبار رجاله راجع المقتبس ٥ - ٢٥١

اتخذوا من قضية الطعن في انساب الفاطميين ، مبرراً لهدم دولتهم :

« أخذ الله لهم من حاسد   في النسب الطاهر قال ولغى »

وهناك من تخوفوا من الطعن في انساب آل البيت، فلجأوا الى الحط من كرامة المعز ، حاملين عليه لاستجازته إعلان صيغة تلك الصلاة في ذرى المنابر ، والواقع أن الجميع يعلمون أن طلب الصلاة هو طلب الرحمة ، والمعز وغيره في حاجة الى تلك الرحمة، فالحاحه على طلبها، دليل على إخلاص عبوديته لله ، قال الله « هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور » (١) « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم » (٢) « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، واولئك هم المهتدون » (٣)

واستعمال الصلاة بمعنى الرحمة ؛ يجري حتى على السنة الشعراء والمتأدبين ، ويخاطب بها بعضهم بعضا، فهذا حسان بن ثابت يقول في شهداء الرجيع :

صلى الاله على الذين توافدوا   يوم الرجيع فأكرموا وأثيبوا

وهذا مويلك المزموم يرثي امرأته أم العلاء ، كما جاء في ديوان الحماسة بقوله :

صلى عليك الله من مفقودة   إذ لا يلائمك المكان البلقع

---

(١) الاحزاب ٤٣
(٢) التوبة ١٠٤
(٣) البقرة ١٥٧

ولولا مسئلة وراثة الاعمام المزعومة ، لما لجأ المعز الى هذه الصيغة (١)، ولما نقش على دراهمه « علي خير الوصيين ووزير خير المرسلين » .

ويسرنا أن نصارح قراءنا ، أن امثال هذه الخصومات السياسية ، التي كانوا يلبسونها ثوب الدين ، هي كثيرة جدا في تلك العصور ،ويقرب من مسألة الأعمام ، مسألة الألوان ، التي غالي بها الفريقان ، فآثر العباسيون السواد ، وجعلوا منه أبرادهم وعمائمهم ، وأعلامهم وجدران مساجدهم، محتقرين بقية الألوان ، فما كان من الفاطميين إلا أن استهانوا بالسواد ، وعملوا على إزالته من المساجد،واستبدلوه بالاخضر الذي جعلوه شعارلهم، وكلنا يعلم أن مسئلة الألوان لا دخل لها في عقائد الوحي، بل هي أسطورة فينيقية (٢) وبوذية وفدت من الصين ، إذ لا يزال (لا مات لهاسا) (٣) يقدسون اللون البرتقالي الى اليوم ، وإلا فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لبس كل ما تيسر له ، وما كان له عمامة أو جبة أو جدار مسجد أو عَلَم يحمل لونا خاصاً ، وهذا شأن إخوانه الرسل من قبل ، صلوات الله عليهم ، وإذ اختص كل شعب من شعوب الانسانية بلون ،فالاسلام يحترم الألوان جميعاً لأنه يحب الشعوب جميعاً .

---

(١) ما اراد الذين خصصوا اطلاق الصلاة على رسل الله ، إلا لتكون علامة لهم .

(٢) كتاب « الجبابرة » ص ٩٧

(٣) راجع « دين ابراهيم »

وعلى كل ، فقراؤنا يستطيعون أن يفهموا ، مما قدمنا بين أيديهم من شواهد ، أن المشادّة والاغاظة والمطاعن ، ديدن تلك العصور ، فاذا رأيت أناساً يقيمون مأتماً لسيدنا الحسين رضي الله عنه،ويتوجعون لذكرى كربلاء وكارثة الطف ، شاهدت آخرين يتخذون من ذلك الشهر أعياداً ويلبسون أحسن ثيابهم ، ويكتحلون ويمشطون لحاهم،ويتعطرون ويطعمون أحسن ما عندهم (١) ، كما شاهدت آخرين يقيمون مأتما لذكرى عبدالله بن الزبير، وإذا ابصرت جماعة تقيم احتفالاً بذكرى يوم الغدير،رأيت آخرين يقيمون عيد النيروز ... وأمثال هذه الخصومات ؛ التي مأتاها الاغاظة والتحرش، عريقة في القدم ،فقد ورد عن بعض الامم القديمة التي كانت تتخذ آلهتها من أشياء الوجود ، أن طائفة منهم كانت تعبد الأسماك ، وأخرى تعبد الكلاب،فكان الذين يعبدون الكلاب لا يحترمون الاسماك،بل يصطادونها ويأكلونها ، فلم يسع الآخرين إلا أن يهجموا على الكلاب ويذبحونها ويأكلونها ، إغاظة لخصومهم ، وهكذا يحدث الغيظ والعناد بين أبناء الانسانية،في كل عصر ما لا يتناسب مع اسم الانسانية ومواهبها من العقل والفكر والخلق والدين .

ولعل قراءنا يعجبون،هل بلغ الانحطاط في الناس الى درجة لا يفرقون

---

(١) لا تزال بعض جماعات جاهلة ،في شمال العراق وفي حضرموت يفعلون ذلك ، وهي في طريق الانقراض ، لان الوعي إلى جلال اعجاز القرآن ومثله العليا ، اخذ يتغلغل في أرصفة العلماء والمفكرين في العالم ، فضلاً عن اهل الفروع الاسلامية ، راجع اعيان الشيعة ١ - ١٧ وتاريخ اليزيدية للعزاوي ص ٢٥

بين القرآن وأهدافه ، وبين الطفيليات وسخافاتها؟والواقع أن الناس أفضو الى تلك الدرجة ، بل الى ما هو دونها ، فقد ذكر محمد بن عقيل في كتابه « العتب الجميل » أن عمر بن عبد العزيز ، لما ألغى تلك البدعة المنكرة ، وهي التطاول على مقام أمير المؤمنين ، علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأخذ خطيب جامع (حرّان) يخطب ، ثم ختم خطبته ونزل ولم يقل شيئاً من سب أبي تراب كعادته ، تصايح النّاس من كل جانب : ويحك ويحك ، السنَّة السنَّة ، تركت السنَّة (١) .. ! إذ خالوا أن ذلك السباب ، سنة من سنن الخطبة لا تكمل إلا به .

واءل قراءنا يعجبون ، أن يكون البرلدى أهل بعض تلك العصور ، هو أمثال هاتيك الأعمال والسخافات ذاهلين عن البر الذي من أجله أنزل القرآن وأرسل خاتم النبيين «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين . وآتى المال على حبه ذوي القربى ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفي الرقاب (٢) ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا

---

(١) (العتب الجميل) طبع مدراس ١٣٤٢ ص ٤٧ وعمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين ناشر لواء الاسلام بالدعوة اليه ، في كشمير والهند الصينية والبربر ، راجع (عجائب الهند) مصر مطبعة السعاده ١٩٠٨ ص ٣ ، ورسالة انتشار الاسلام لرفيق العظم .

(٢) أي المن باطلاق الاسرى .

والصابرين في البأساء والضراء و حين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (١)

نـــداء

نحن في هذا الكتاب ، حين نشرح وحدة أصول الوحي في العالم ، نحرص جدًّا على الانطلاق وروح الحرية الدينية ، التي أرادها الله للبشر جميعاً ، فلا نطلب الى أهل الأديان : من البوذيين ان يكونوا براهمة ، ولا البراهمة أن يكونوا مسلمين ، ولا المسلمين ان يكونوا كونفوشيوسيين ، ولا النصارى أن يكونوا زرادشتيين ؛ ولا الطاويين أن يكونوا يهوداً ... وإنما نطلب الى الجميع ما طلبه العالم المفكر الاستاذ عبد العزيز المطوع أن يمثلوا صفاء الوحي الالهي الذي يؤمنون به ، وجلال الله الذي يتوجهون اليه ، في صلاتهم ومعابدهم ، أن يمثلوه بما يليق به ، من السمو الروحي ، والخلق الديني ، والتسامح الانساني ، وإكبار العلم والحق والاخلاص . هذا هو المقصود من كتابنا ، أما ما وراء ذلك فليس من قصدنا ، اذ يقول الله «بل الانسان على نفسه بصيرة »(٢) « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » (٣) « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » (٤)

كما نطلب الى أهل المذاهب الاسلامية جميعاً ، أن لا يتركوا هدى أئمتهم الأعلام ، أو ينحرفوا عنه ، وانما الذي نلح في طلبه ، هو أن يكونوا

---

(١) البقرة ١٧٧ .

(٢) القيامة ١٥

(٣) البقرة ٢٥٦

(٤) هود ١١٨

على سننهم ، في الأخذ بالأصول اليقينية ، والنظر الى الفروع الاجتهادية الظنيّة، بعين الحريّة والاختيار، نظراً لا يخرجها عن كونها فروعاً اجتهادية ظنيّة ، يحرم أن تطغى على روح الأصل ، الثابت بالتواتر العلمي اليقيني « القرآن » ، ولا توجب ضغناً ولا تكفيرا ولا خصومة ولا خلافاً ، وأن يعلموا جميعاً أن الصغار وضيقَ العقل والتحاجز . لم يكن منشؤه من أصل الوحي الالهي « القرآن » . الذي لا يرتاب ذو عقل . مهما قل علمه . أن فيه سعادة الانسانية وخيرها وجامعتها . فهم أولي أن يجدوا كل ذلك فيه . وكذلك لم يكن منشؤه من اجتهاد أئمتهم الأعلام . الذين لم يكن لهم من غرض أساسي . سوى الاستمساك بهدي ذلك الأصل ، والاستضاءة بنوره والاستمتاع بسعادته . والانضواء الى جامعته .

على أن أئمة المذاهب الأول . الهداة المتسامحين . لا يُخرج بعضهم بعضاً . عن حوزة الاهتداء بالأصل . ويرون أنَّ أيَّ خلاف فرعي . مهما جل خطره . وعظم أمره . لا يحول دون الوحدة الجامعة . التي أقامتها تعاليم الأصل . وكل واحد منهم يرى الشيء الجميل . الحافل بمذهب الآخرين . رؤيته للشيء الجميل الحافل بمذهبه هو . وهذا شأن عباقرة أتباعهم . فان أحدهم ان لم ير الشيء الجميل في مذهب غيره . خيرا مما في مذهبه . فهو يراه مساوياً له . على أقل تقدير . ولن ترى بينهم اثيماً يستنقص مذهب الآخرين . ويراه طريقاً الى جهنم . وان كان في نفس الأمر . دونه في بناء الحجة . وقوائم الدليل المستندِ الى الأصل . فاكبارُنا للجميل لدى غيرنا . واعجابنا به . وثناؤنا عليه . لا يخرجنا عن الاعتراف بما لدينا . بل يحمس أهله . الى

مبادلتنا الاعتراف بالمثل . اذ الانسان . مهما جفا المعرفة . وحارب الواقع . فالحقيقة تبدو كسنى الفجر . يشمل ضوؤها . ويلذ اشراقها.وتسعد شمسها. وكل ما تحتاجه.هو الاقبال عليها. درساً ونقدا وتمحيصاً.بنزاهة واخلاص. بل عرضها في ثوب مشرق جذاب . بريء من المغالاة والتعنت .

ويشهدالله أنه ليس من قصدنا . أن ندعو السني ليكون شيعياً.والعلوي ليكون درزيا . والزيدي ليكون اسماعيلياً ... لالا . انما غرضنا أن يفهموا جميعاً . أنهم اخوة منضوون تحت كلمة التوحيد . التي أعانتها كتب السماء المقدسة ، منذ أقدم الأجيال . وجاهد في سبيلها. كل دعاة الأديان الكبرى في العالم . وأنهم هم وأهل الأديان . يجمعهم واجب دعوة البشرية الى الله. في هذا الوقت العصيب.وحسبنا أن نفهم هنا أن الأئمة والمجتهدين متفاهمون. وأن الفروع لا تفرقنا . بل هي توسعة ورحمة بالجميع. وآية على حرية اطلاق الفكر والانطلاق . وان الاسم الجامع . الذي اختاره الله للذين أسلموا الايمان به . وبجلال وحدانيته . نفوسهم وضمائرهم ونواياهم وعقولهم .هو اسم « المسلمين » « وجاهدوا في الله حق جهاده . هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج . ملة أبيكم ابراهيم . هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس.فأقيموا الصلوة وآتوا الزكاة . واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » (١)

واذا كان الله . منحنا الحرية فيما نختار من دين . ولم يخلقنا مجبورين . « لا اكراه في الدين » أفلا يمنحنا حرية اختيار الفرع المذهبي ؟ . وما دمنا

(١) الحج ٧٨

نعلم جميعاً . ان الله أرسل خاتم أنبيائه (صلى الله عليه وآله وسلم) رحمة للعالمين . (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) (١) فكيف نجعل هذه الرحمة شقاء لنا ؟ . واذا كان الله أنزل كتابه لبيان توحيد وجهة نظر أهل الأديان، وجمع كلمتهم (وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) (٢) . فهل يجوز أن نتخذه نحن طريقاً لشتاتنا . بما نحكم فيه وفي تأويله من نصوص ظنيّة، ونظريات اجتهادية. لا يوجب تباينها تكفيراً ولا خصومة ابداً على أن الذين يتخذون من تلك الرحمة الآلهية المتجلية في الفروع الاسلامية . وذلك الخير والهدى الذي قصده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وأئمة ومجتهدو المسلمين . حراباً مسمومة . يطعنون بها الانسانية . ويمزقون شملها. أبعد ما يكونون عن هدى الله ورسوله . واجتهاد أئمتهم الأعلام . وكل ما نقدمه لهم من انذار خشية ان يصلوا الى الاختلاف في الجوهر هو قوله تعالى (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق . وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد)(٣)

أجل. نزّل الله الكتاب لجمع كلمة الانسانية . وتضميد جراحها واسعادها وتآلفها . وهو الحق . لا للاحقاد والتنازع والخصومات . وهو الضلال والشقاق البعيد . وقد أجمع أهل الفروع الاسلامية . على أن الأسوة والقدوة الجامعة لهم . هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وحده (لقد كان لكم

---

(١) الانبياء ١٠٧
(٢) النحل ٦٤
(٣) البقرة ١٧٦

في رسول الله أسوة حسنة . لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . وذكر الله كثيرا) (١) وأما امام المذهب أو مجتهده . فهو دليل ومرشد . الى اتباع تلك الأسوة . لتظل حلقة الوحدة الدينية . متماسكة بين الجميع . فاذا شذ المزقون أعشار الشيوخ . من أهل الفروع . وحمّلوا إمامهم أو مجتهدهم سلطان القدوة . ومسؤليتها الخطيرة . أي جعلوه قدوتهم الخاصة الى الله . ونسوا القدوة الجامعة (رسول الله) فقد تناءوا عن روح الاسلام . ومثله العليا بلا ريب (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني .. يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) (٢)

ونفهم من هنا . أن الانحياز الى جعل الامام أو المجتهد . هو القدوة فحسب . والأخذ بآرائه . مع وجود النص القطعي . والحديث المؤيد بالأصل لدى فرع من الفروع يفضي بنا جميعا الى التنابذ والخلاف والفشل المؤكد . والسقوط الحتم (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون . ولا تكونوا كالذين قالوا : سمعنا وهم لا يسمعون . ان شر الدواب عندالله . الصم البكم الذين لا يعقلون) (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين) (٣)

ونعتقد أن أقدس واجب للانسان . وأشرف عمل في هذه الحياة . أن

---

(١) الاحزاب ٢١
(٢) آل عمران ٣٠
(٣) الانفال ٢١ و ٢٢ و ٢٣ و ٤٧

يكون مؤمنا بالله الواحد . خالق الوجود . وداعياً البشرية الى ذلك الايمان. اتباعا لرسل الله الكرام . وهداة وحيه . تلك هي القدوة النبيلة . وذلك هو العمل الشريف . الذي اتخذناه لأنفسنا . من أعمال رسول الله واخوانه الانبياء . فنحن نقدم النصح والارشاد والعظة . معتقدين أن تقديمها واجب انساني نبيل . نقدمه لا رغبةً فيما لدى الناس من حطام . او رجاء معونتهم وتأييدهم . ولا لكونهم يستمسكون بها او ينحرفون عنها . وانما حذر ان نقع فيما وقعت فيه الأمم السابقة . من ترك الحبل على الغارب . وعدم الاهتمام بالموعظة والنصح . حتى يستغرب نصح الناصحين . لما يبدو على الناس من علائم الاهلاك . (واذ قالت امة منهم : لم تعظون قوما الله مهلكهم او معذبهم عذابا شديدا.قالوا : معذرةً الى ربكم ولعلهم يتقون. فلما نسوا ماذ كّروا به. أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم: كونوا قردة خاسئين) (٢)

اجل . صدق الله فان الانصراف عن الاصلاح الذي جاء به الوحي. وعدم قبول التحرر والانطلاق من اغلال التقليد يجعل الناس كالقردة مقلدين ممرورين . لا يستحقون شرف النسبة الى الايمان بالله الموحي (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا : هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) . (٣)

---

(١) الاعراف ١٦٤ الى ١٦٦

(٢) النمل ١٣ و ١٤

ونحن نعتقد . ان الله ما خلق الانسانية . ومنحها الفكر والعقل والارادة المطلقة . الا لحكمة يقتضيها نظام خلقها . واو لم تخلقنا احراراً مختارين . لا نضوينا جميعاً تحت عقيدة واحدة . وقضي على الجهاد في سبيل العلم والمعرفة والسمو بالانسانية الى الكمال الديني الذي جعله الله طريقاً لنيل رضوانه .

ويكفينا في هذا المقام ـ اذا قصدنا بحق ان نرحم امتنا الانسانية من التمزيق والتدمير ان نخاطب بعضنا بعضا بما خاطب الله به « مؤسسي الاديان العالمية رسله الكرام صلوات الله عليهم (يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون عليم. وان هذه امتكم امةً واحدةً وانا ربكم فاتقون)(١) وتأكيدا لهذا الأمر العظيم (اعلان وحدة الامة الانسانية) طاب ذلك الى الرسل مرة ثانية بقوله(ان هذه امتكم امةً واحدةً وانا ربكم فاعبدون)(٢) اذ نحن لا نزيد علم الله بأعمال الناس خيرها وشرها وما تنطوي علية افئدتهم حين نعلنها ظنا ، على أننا لو علمناها يقينا لما وسعنا إلا أن نتلوا قوله تعالى ، المهذب لنفوسنا الباسط ظلال السلام والصفح والغفران « وقيله يا رب : إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . فاصفح عنهم وقل : سلام .فسوف يعلمون»(٣) وإنّا نبتهل بما ابتهل به رسول الله صلى الله علية وآله وسلم ، شاهدين بما

---

(١) المؤمنون ٥٢

(٢) الانبياء ٩٢

(٣) الزخرف ٨٨ و ٨٩

شهد به ، متبرئين من المزقين الآثمين ، سواء كانوا من أهل الأديان ، أو من أهل الفروع « اللهم ربّنا وربّ كل شيء ، أنا أشهد أن العباد كلّهم إخوة » (١) .

الحكم بالكفر حق من حقوق الله

الاسلام هو ما ظهر من قول أو فعل ، وعليه جرت المواريث ؛ واجتمعوا على الصلاة والزكاة والصوم والحج ، فخرجوا بذلك من الكفر ، وأضيفوا الى الايمان (٢)

لا أكفر احداً من اهل القبلة (٣)

« اختلف المسلمون بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، في أشياء كثيرة ، حتى تباينوا فرقاً ، إلاّ أن الاسلام يجمعهم ويعمهم » (٤)

« الحمد لله لم يجعل قتلي بيد رجل ، يحاجني يوم القيامة بلا إله الا الله » (٥)

لا احكم بكفر أحد من اهل القبلة (٦)

---

(١) راجع « دين ابراهيم » ص ١٦

(٢) الامام محمد الباقر رضي الله عنه ، ويقصد بالايمان الاسلام ، اذ طمأنينة القلب بحقيقة الايمان لا يعلمها الا الله ، والحكم بالظاهر اصل من أصول الاسلام .

(٣) ابو حنيفة

(٤) ابو الحسن الاشعري

(٥) عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه

(٦) ابن تيمية

« إياكم ومعاداة أهل لا إله الا الله ، فان لهم الولاية العامّة » (١)

« لئن نُشرت بالمناشير لا اقول بتكفير أحد من أهل الشهادتين » (٢)

إن جميع اهل التوحيد يدخلون الجنة (٣)

« لأن تأكل لحمي السباع أحب إليّ من أن ألقي الله بعداوة من يدين له بالوحدانية ولمحمد بالنبوة » (٤)

لن نكفر أحداً من اهل المذاهب الاسلامية (٥)

لا أعتقد ولا اقول بتكفير احد من اهل القبلة (٦)

لا تحل عداوة موحد وإن مال به الهوى عن الحق (٧)

ويكفينا أن نختتم أقوال الأئمة والمجتهدين بكلمة سيدنا الامام جعفر الصادق رضي الله عنه: « المسلم اخو المسلم ، هو عينه ومرآته ودليله لا يخونه ولا يخدعه ولا يظلمه ولا يغتابه » . وقد وجدنا الشافعي يأبى أن يكفر

---

(١) ابن العربي
(٢) الاوزاعي
(٣) الحسن البصري
(٤) ابن عيينة
(٥) ابو الحسن الروياني
(٦) النبهاني
(٧) سفيان الثوري

جميع هذه النصوص أخذت من كتاب « الفصول المهمة في تأليف الامة »، ليرجع إليه فانه فريد

الخوارج الذين تورعوا خوفاً من الله - في زعمهم - ان يقتلوا خنزيرا مع استباحة دماء كرام الصحابة ، يأبى أن يكفرهم - كما أبى سندنا الحسن ابن علي رضي الله عنهما من قبله (١) لاعتقاده أن ذلك حق من حقوق الله ، فيتأدب تجاهه سبحانه ، تاركا الحكم بحقيقة الكفر أو الايمان له .

وقد أفاد أئمتنا هذه العقيدة الانسانية السامية، التي هي في منتهى التسامح وفي منتهى النبل والاخلاص ، والتي تجعل الانسان يأمن اخاه الانسان مهما تباعدت بينهم شقة المعتقدات، ونأت بهم مظاهر الايمان ، عن أعمال صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم ، وأقواله .

قال صلى الله عليه وآله وسلم ، « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة » (٢)

وإنا نجد رسول الله ، حين أرسل « معاذ بن جبل » يدعو الى الله في اليمن ، أمره أن يكتفي بروح الايمان بالله تعالى ، والاعتراف برسالته عليه الصلاة والسلام ، إذ يقول له: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فادعهم الى شهادة أن لا إله الا الله ، فان هم أطاعوا لذلك فاعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فان هم أطاعوا فاعلمهم أن الله أفترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم ، فان هم أطاعوا لذلك ، فاياك وكرائم أموالهم ؛ واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله

---

(١) النصائح الكافية ، لمحمد بن عقيل ، طبع بمباي ص ٢٥

(٢) و ٣ و ٤ ، راجع مختار مسلم وشرح النووي ، مصر مطبعة السعادة ، ص ٨٤ و ٨٨ و ٤٧ و ٥١

خضاب »

وكبير في الجرأة على الله ان يعتقد انسان في نفسه ان الجنة والنار هما بارادته وأمره، وان الحكم بالايمان او الكفر، والاشراف على اعماق القلوب، هي من خصائصه، وفرضه وتقديره ؛ مهما سما مكانه، وعظمت قرباه وكثر علمه وخوارقه، واعتقدت نزاهته وصدقه واخلاصه وتقواه .

هذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يغضب على ربيبه أسامة ابن زيد، غضباً شديدا حين بلغه أنه قتل وثنياً في المعركة أعلن كلمة التوحيد، يغضب ولا يقبل من أسامة قوله معتذراً : لم يقلها الا دفعا للقتل، قائلاً « هل شققت عن قلبه » اذ مفهوم أن موطن الايمان القلب، ولا يعلم سرائر القلوب الا الله وهكذا كان موقفه « صلى الله عليه وآله وسلم » حين استشاره عمر رضي الله عنه في قتل رئيس المنافقين « عبد الله بن أُبَيْ » قائلاً « كيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » كأنه يعلّم عمر وسواه أن الاسلام هو الظاهر فحسب، وان كان الظاهر مصحوباً بالريب والظنون، كما هو حال ابن أُبَيْ .

واذا كان أعلام الأئمة وكبار المجتهدين بل وأهل العالم الاسلامي جميعاً، لا يستطيعون أن يثبتوا ان شخصاً بعينه مات على الكفر أو على الايمان من أهل الاديان جميعاً في مشارق الارض ومغاربها، فكيف نستطيع نحن أن نصم هذا بانه مخلد في النار، وذاك في الدرك الأسفل منها ؟ وهو يعلن الشهادتين ؟ .

ادوار فهم الاسلام

مشهورة هي تلك الأدوار الثلاث، التي مرت بها الانسانية في فهم الاسلام، فهم العصور الذهبية الأولى، وفهم العصور المظلمة المنحطة، وفهم العصور الحديثة، وانّا سنبسط لقرائنا هذه الأدوار الثلاثة، باذلين جهدنا في استقصاء الحوادث المتصلة بها، ليبسطوا أمام أنظارهم، أضواء ساطعة تنير لهم الطريق، وتكشف لهم الحقيقة، وتجلي لهم الواقع.

فهم العصور الذهبية الاولى

كلنا يعلم أن الوحي الاسلامي، نزل على خاتم الرسل، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وكلنا يعلم أن الوحي الاسلامي، فيه كل العجائب الخارقة، الدالة على أنه وحي من الله، الخالق كل شيء، وقد ألمعنا الى هذا التدبير الالهي، في الكتاب الأول من هذه السلسلة، التي تناولت دراسة الوحدة الدينية، في الأديان العالمية الكبرى، تحت عنوان « دين ابراهيم »

أجل، جعل الله عجائب الاسلام الخارقة، ماثلة في صميم الوحي، الذي أنزله على خاتم رسله ﷺ ولو لم يكن كذلك لما أعطت سوى الايمان التقليدي.

واذا فهمنا ذلك، أدركنا تماما، لماذا يجد الناس في الوحي الاسلامي، « القرآن » كل مقتضيات التقدم، والحضارة والعلم، وكل مطالب الحياة، والتشريع والحكمة، ولماذا يجدونه في كل ساعة جديداً، بل يجدون جدته

أبداً ، تسبق الحضارة والعلم ، وتنهض بالانسانية اليهما حثيثاً ، وهكذا ، كلما وصلوا الى مرحلة من الانطلاق ، والحرية والمجد والعلم ، وجدوا القرآن قد سبقهم اليها ، ووجدوا دلائله تنطق في آياته المعجزة الواضحة ، مشتملا على امكانيات لا تنتهي، للوثوب بالانسانية الى مراحل لا تنتهي. ومن هنا أدرك العلماء ، أن الوحي الاسلامي أداة التطور والنهوض ، وغراس السماء المعجز ، ، ينبوع الحق والنور ، يدعو أهله : الى الكمال ، الى الانسانية ، الى الفهم ، الى الحرية ، الى التفاهم ـ شأن الوحي الالهي في كل دين ـ وليس له من أهل سوى الانسانية المحررة المدركة ،وهؤلاء هم الذين يسعد بهم وحي الله ، ويسعدون به ، ويعتز بهم الايمان ، ويعتزون به ، ومن التوفيق الالهي ، أن الله أنزله على قوم بداة ، خالية نفوسهم ، من كل أغلال الوارثات والتقاليد ، والمعارف الملتوية الضيقة ، فاستطاعوا بعد جولات من الفكر ، النيّر الصافي ، أن يلمحوا نوره ، ويعتنقوا مثله ، (١) وينموا منها ما يوائم استعدادهم،وتقتضيه بيئتهم وظروفهم ، كل ذلك بصفاء خال من التكلف والنظريات المعقدة ، التي وضعها الانسان للوجود ، قبل أن تصبح معرفته بالوجود ذات قيمة علمية بالنسبة الى اليوم.

أجل ، كان أهل العصور الاسلامية الأولى ـ العصور الذهبية ـ

---

(١) إن عمل العرب بالقرآن ، جعلهم علماء العالم ، وواسطة نقل ، وإصلاح فكري عالمي ، بل اتفق الباحثون ، على أن أكثر ما عرفه الاوربيون من الفنون ، كالهندسة والجبر والضوء والرافعة للمياه ونظام الصيدليات ... مأخوذ عن العرب هذا علاوة على التشريع والحدود والمعاهدات . راجع ما نقله عن شيديو العلامة طنطاوي جوهري ، الجواهر ٧ ـ ١٦٧

يمثلون الاسلام في أعمالهم أكثر من أقوالهم ، كانوا يفهمونه بأعمال النبي وآله وصحبه ، ويطبقون ذلك الفهم بأعمالهم أيضا ، وهذا الفهم العملي ،هو الذي جعلهم أئمة وهداة في الارض ، وانسانيين بررة وفاتحين رحماء .

سُقيا لهم ، آمنوا جميعاً بكتاب الله ، والتفوا حوله،وشرعوا يدعون اخوانهم الذين لم يصلهم نورُه، بكل نبل وتضحية واخلاص وحب، لأنهم قرأوا أول ما قرأوا فيه (الحمد لله رب العالمين) فألقوا عن ظهورهم ،أثقال تلك الآلهة الدخيلة ، المتحاجزة المتباغضة المزعومة ، وتنفسوا الصعداء ، وزحزحوا عن كواهلهم أساطيرها وتخومها(١)السوداء المنكرة،وانطلقوا الى نور رب العالمين ، يصافحون اخوتهم ، ابناء الشعوب ، الذين اضاعوهم في ظلمات الوثنية ، فالتقوا بهم في ضوء الوحي .

ها هي ذي قد انتظمت الحلقةُ الأولى ، حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، في مسجده بطيبة ، وفيها العربي الى جانب الحبشي ، والرومي الى جانب الفارسي والعبري ، فكانت كهالة القمر ، ما زالت تتسع وتمتد ، وتنتظم المدن فالأقطار فالقارَّات ، حتى غمرت الانسانية جمعاء ، بنورها السماوي الصافي ، وسلامها الروحي المثالي ، وحريتها النبيلة العامّة ، ورأينا آثارها المشرقة ، في بغداد وطليطلة ، وسمرقند والقسطنطينية ، والقاهرة والنجف ، وجاكارتا ولاهور والقيروان وكانتون .. بل في اكسفورد والسربون ... وهكذا ، سارت الرسالة الاسلامية الانسانية ، سيرها العالي

---

(١) كان لكل بلد أو قبيلة صنم ، وقد يتطاحن البلدان أو القبيلتان لاجل سيادتها ، فجاءت الاديان تلغي التخوم

الذي يليق بها ، ومن حولها مجتهدو الأئمة الأعلام ، وعباقرة المفكرين والفلاسفة ، والعلماء المنطلقون ، يعبدون الله وحده، ولا يستعينون بسواه، ويقدسون كتبه ورسله جميعاً (قل آمنا بالله وما انزل علينا ،وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط ، وما اوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون) (١) فعاشوا في عصورهم الأولى متفاهمين متحابين بالمقدار الذي هدوا اليه من كنوز الوحي .

هؤلاء ابناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأصحابه الاعلام ، يتطوعون مجاهدين في جيوش امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام وحين انقلبت الامور على الرغم منهم ،واستحال الأمر الى ملك عضوض بيد معاوية وبني مروان ، رأيناهم يتطوعون بكل اخلاص لخدمة المصلحة العامة ، ويبتهلون الى الله طالبين تأييدها ، لانهم لا يؤثرون سواها (٢) اذ الاسلام مؤسسة انسانية عامة كريمة ، ومثل عليا ، لا دين جماعات خاصة وافراد واقطار وأقاليم « وما محمدٌ الا رسول قد خلت من قبله الرسل ،أفان مات او قتل أنقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلبْ على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » (٣) فهم يعملون لا لمصلحة خاصة ، ولا لمتعة

---

(١) آل عمران ٨٥

(٢) ابن الاثير ٣ ـ ٢٠٦ و ٢٣١ و ٢٣٣ ، وراجع دعاء سيدنا الامام علي الاصغر « زين العابدين » عليه السلام للجيش الاموي المرابط في الثغور . وهوالذي شاهد الطف .

(٣) آل عمران ١٤٤

نفسية ولا للذة اسم او شهرة ، ولا لشيء مما يتعلق به ذوو النفوس الصغيرة عادة ، وإنما يعملون للاسلام مخلصين ، وما يعملون له إلا لانه وحي الله الذي أنزله لهداية الجميع ، بل لا يفكرون حتى في ذكر أسمائهم أو معرفة أشخاصهم حسبهم أن السماء حفظت اسمهم ، وأن الله يعرفهم ، وهذا اللون من الرجال النبلاء هم الذين يحملونهمّ الوحي الآلهي ويضحون بكل شيء في سبيله ، ويخلصون العمل له ويؤثرونه على زيف المترفين وجشع نفوسهم المنحطة .

أجل ذكر التاريخ أن الخليفة الواثق بالله العباسي (١) انتدب لجنة من خيرة العلماء للتنقيب عن موطن السد الذي ذكره الله في سورة الكهف (٢)، فذهب أولئك العلماء يطوفون مجاهل الصين والهند ويبحثون عن السدود ويدرسون دراسة واسعة الآثار القديمة ، وبعد غيبة استغرقت ثمانية عشر شهرا ، ، ثابوا الى بغداد وقدموا تقريرهم الى الخليفة ، وأغرب ما قصوه عليه أنهم شاهدوا قوماً من المسلمين في تلك المجاهل ، فعجبوا لوجودهم ، ودهشوا حين رأوا بينهم القرآن ، فسألوهم عن الخليفة ، والمسلمين ، فوجدوهم لا يعرفون شيئاً ، فلذ لهم أن يعرفوا كيف وصلهم الاسلام ، وهنا ذكروا

---

(١) هو هارون بن محمد بن المعتصم بن هارون الرشيد توفي عام ٢٣٢ ﻫ بعد أن دامت خلافته خمسة سنين ، كان محباً للرعية مكرماً أهل الحرمين الشريفين رفيقاً بآل البيت النبوي المطهر . ابن الاثير ٧ — ١١ و ١٢

(٢) لاجل التعرف على السد وتاريخ اكتشافه وعلاقته بيأجوج ومأجوج راجع تفسير الجواهر لسورة الكهف ، وفلسفة التاريخ العثماني .

أن رجلا خيّراً نبيلا، وعالما باراً، نزل بينهم فسرهم سلوكه، وأعجبهم أخلاقه ودينه، فأخذوا يسألونه عنه وأخذ يذاكرهم به حتى آمنوا جميعاً(١)

والذي يهمنا من هذه القصة، بصورة خاصة، هو إكبارنا وإعجابنا، بأولئك البررة الكرام، الذين حملوا تعاليم الوحي الآلهي، الى مجاهل الارض، في جزر إندونيسيا ومجاهل الصين والهند وأفريقيا وفنلندا والفلبين، ولم يفكروا أن يعلنوا للناس أعمالهم، أو يدونوا سيرهم، أو ينوهوا بأسمائهم، حسبهم أنهم عملوا لله، وأنهم رأوا من مصلحة الانسانية، أن تعرف وحي الله، وأن تدرس مثله، فأوقفوا أنفسهم لخدمتها ونهضوا بها. على أن الله سبحانه وتعالى، لم يضيع جليل أعمالهم، «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون» (٢) فهذا مولانا ابراهيم، ومولانا سادرجاهن، ومولانا نور الدين ... (٣) أدوا واجبهم تجاه الله، في دعوة أهل «أندونوسيا» الى الايمان بالوحي، وكانوا في دعوتهم مخلصين صادقين، يحملون الحب الخالص للانسانية، والمشاعر الكريمة، أدوها بنياتهم الحسنة، واستقامتهم الصادقة، ومثاليتهم الرفيعة؛ فكان جزاء ذلك، أن أصبحت ذكرياتهم تقام لها الحفلات، وأصبحوا يمجدون بين قوم، يتجاوزون السبعين مليونا عداً، وليس ذلك بقليل في جانب الدعوة الى الله والاخلاص لوجهه، وهم وإن لم يكونوا دعاة متخصصين، بل تجار من

---

(١) نهاية الادب ١ — ٢٧٩

(٢) السجدة ٢٤

(٣) اندونوسيا الثائرة ص ٤٨، مطبعة الاعتماد

فرس وعرب وهنود ، إلا أن ذلك الثوب الانساني الطهور ، وتلك النفس المؤمنة الخاشعة ، جذبت القوم الى الايمان وزينته في نفوسهم ، فعاشوا الى جانب آخرتهم البوذيين بسلام، أي بما يليق بجلال مثل الاسلام العليا.

هذا إمام دار الهجرة « مالك بن انس » (١) ، يتقدم اليه المنصور العباسي، وهو يضم اليه المجد والسلطان ، ونفوذ الكلمة ، وسلطة القانون ، شرط أن يسمح له بفرض مذهبه ، وما جمعه في الموطأ ، على الناس جميعاً ، ولو أن رجلا غير الامام مالك، الذي فهم روح الاسلام، واستوعب نصوصه الأولى ، من منابعها ، وأدرك مثله الانسانية العليا وانطلاقها ، ورأى في إيثار خدمته والاخلاص له ، مجد الأبد الذي لا يزول ، ولا يوازيه مجد أو يضارعه عمل ، مهما جل في الانفس ، لفتن بالمجد الزائف ، وسره أن يجتمع الناس على مذهبه وحده ، بيد السلطان قسراً ، ولكن مثله في تقواه وفهمه ، أكبر من أن يرضى ، بحصر وحي الله في مذهب أو كتاب أو كتب ، بل رآه أكبر من السموات والارض ، وأوسع من الكائنات لأنه أدرك أن فيه حاجة كل أمة ، ومصلحة كل شعب ، وعلاج كل داء ، ونهضة كل جيل وعصر .

ها هو ذا يقول بكل نبل وإخلاص ، للخليفة الجبار المخيف ، يا أمير

---

(١) ٩٥ - ١٧٩ ولما رأى هارون الرشيد ان مذهب مالك استطار انتشاره في اكثر الاقطار ، احب ان يستغل الموقف وان يستثيره للموافقة على جعله مذهب المسلمين كافة ، ولكنه اعتذر بما اعتذر به للمنصور من قبل . وشهرة الموطأ تغني عن التعريف به ، وقد اشتغل بتنقيحه اربعين عاماً

تاريخ التشريع الاسلامي لمحمد علي السايس ورفقاه ص ٢٥٦

المؤمنين ، إن صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تفرقوا في الأمصار، وكل واحد يحمل من نور الوحي ما يحمل ، فكيف نقسر الناس على ما وصلني فحسب ؟ ، وإنا نجد هذه الروح النبيلة ، التي انطوت عليها نفس الامام مالك ، هي روح كل إمام من أئمتنا ومجتهدينا ، رضوان الله عليهم ، ها نحن أولاء نرى الامام اباحنيفة نعمان بن ثابت(١) يتلقى على أئمة آل البيت النبوي المطهّر ، رضوان الله عليهم ، علومه ومعارفه ويقتبس من أضوائهم ما يقتبس ، نراه أولا يجلس في حلقة الامام أبي جعفر محمد الباقر(٢)، رضي الله عنهما ، يغدُ اليه مبكرا ويؤوب مساء ، وقد ملأ وطابه علماً وحكمة، وقلبه نوراً وايمانا ، ولم يكتف بأن يتلقى العلم على واحد من أئمة آل البيت المطهّر ، بل جد لينضوي الى الحلقة المباركة التي يعقدها الامام زيد (٣) بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم ، وأن يعب من زاخر علمه ما يعب منها ، وكم تردد غيروان الى علم الأئمة الابرار ، سيدنا الامام جعفر الصادق (٤) ، رضي الله عنه ، فأفاد منه الكثير الكثير .

على أن أبا حنيفة ، لم يقف به الحرص في الافادة من أقمار آل البيت النبوي المطهّر وجدهم، بل حرص أن يستفيد من كل من تشرف بصحبتهم، فرأيناه يأخذ من نزّال بن سبرة ، لانه تشرف بمجالسة أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ، كما يأخذ من كبير مجتهدي الامامية عبد الله بن عمر بن

---

(١) ٨٠ - ١٥٠
(٢) توفي عام ١٤٤
(٣) توفي عام ١٢٢
(٤) ٨٠ - ١٤٨

حفص المعروف بأبي عثمان العمري(١)وهناك أيضا رجال من صفوة مجتهدي الشيعة ، يأخذون عن أبي حنيفة العلوم والمعارف ، أمثال المجتهدين الكوفيين الكبيرين محمد بن فضيل واسماعيل بن موسى.

نعم هناك جماعة جاهلة ، تعيش على حساب التفرقة وامتصاص الدماء، لم يرق لها التفاهم ، خشية أن يحال بينها وبين أطماعها ، وهؤلاء لا نتخذهم دليلا ، على أن هناك تفرقة أو تباينا ، لأن أعمالهم الهدامة لم تكن صادرة عن امتثال للقرآن المجيد، واتباع لخاتم الرسل وانما كانوا يتبعون أهواءهم ونزوات أنفسهم ، وما وضعوا من طفيليات.فمما نسمه المزق في الواقع دليل على أن القرآن والنبي وآله واصحابه والأئمة المجتهدين مجمعون وانهم هم وحدهم المفرقون.

وأطرف ما يحكى في وضع هؤلاء ، لأسباب التفرقة والشقاق ، أن المهدي العباسي ، جاءه كتاب من ملوك الأندلس الأمويين ، كله مثالب موضوعة على آل العباس ، فعرضه على هشام الكلبي قائلا : ضع مثله لهم ، فوجد هشام أن بابا من الرزق فتح له ووضع كتابا ضخما في مثالبهم (٢) ، فأرضى بذلك المهدي ، وأحرز الثروة ، وان مزق كلمة الأمة وخان الله والدين والمعرفة والواقع ،وقل مثل ذلك في هذه المثالب المقذعة ،المسطورة في كتب السطحيين والنفعيين ، الذين يعيشون على حساب تفرقة الأمة ، « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (٣) ويتقربون بذلك الى الله زلفى

---

(١) المتوفى [illegible] انظر باب الاسماء في الكتاب الثاني

(٢) الطبري ١٠ ـ ١٣

(٣) [illegible]ف ١٠٥

« واذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض . قالوا : انما نحن مصلحون . ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » (١)

فهم العصور المظلمة

كلنا نعلم أن الشمس ابداً مشرقة . ودائما مضيئة ساطعة . ولولا سحب سوداء تعترضها احيانا . لما اختفت اشعتها في يوم . وفقد الناس حرارتها ونورها . وهكذا يعترض الوحي الإلهي في كل الأديان . دور انحطاط يكثر فيه الوضع والآراء السقيمة . وتنتشر فيه الأساطير . ويضعف فيه العلم والمعرفة . ويكثر الذين يتاجرون بعقول الناس . ويقذفون في قلوبهم المخاوف والمزعجات . ويحولون بينهم وبين الانطلاق والفكر والفهم الصحيح .

ونحن اذا نظرنا الى الوحي الاسلامي بصورة خاصة الفينا حوله أئمة اعلاما ومفكرين عباقرة . استوعبوه فهما . واحاطوا به علما . ونهضوا به بقدر ما اوتوا من امكانيات . فلما بدأ العلم ينحط والمعرفة تضعف في العصر العباسي الثاني . ظهر بين المسلمين جماعات سطحية . وضعوا التقاليد والافكار السقيمة والفروع المذهبية . موضع اصول الوحي واكبروها أيما اكبار . حتى عظمت في أعينهم ونفوسهم . بقدر ماصغرت عيونهم ونفوسهم . وهكذا

---

(١) البقرة ١١ و١٢

اخذ الانحلال يتنفس في كل بيئة وموطن. ويتسرب الى الجماعات والافراد. ويحمل بين يديه الفهم السقيم والاتكالية المزرية . والطفيليات الوضيعة . والاصر والاغلال . التي كانت في أعناق الامم السابقة . فرأينا الأحداث تتكاثف . والأرزاء تنصب والشجار لتوافه الاشياء . ينشب بين الاخوة ويتأجج أواره ، وقد كفانا الرحالة المغربي « ابن بطوطة » الذي استطاع أن يطوف أرجاء العالم في ثلث قرن (١) ويدون مشاهداته على علاتها، تاركا الدارسين الحكم والنظر وفهم البواعث والأسباب .

ها هو يدخل مدينة « أصبهان » الايرانية ، فيرى الناس في هياج شديد ، وقتال مريع ، فيظن أن اعداء هجموا على المدينة ، لانه لم يشاهد إلا ذعرا وفتنة عمياء ، وكم كانت دهشته ، حين علم أن هذه الفتنة الطائشة إن هي إلا بين السنة والشيعة . كما ذكر أنه حين نزل مدينة « الحلة » المراقية ، وجد مثل تلك الفتنة ، خالفها أيضا بين السنة والشيعة ، ولكنه علم أخيرا ، أنها بين الشيعة أنفسهم ، فأدرك أن الجميع ؛ بعيدون عن روح الاسلام كل البعد ، وأنهم لا يمثلونه في أعمالهم ولا في أقوالهم ، ذلك لان مذاهب الشيعة والسنة ، المستمدة من القرآن والاحاديث ، أكبر من أن تثير الفتن الهوجاء ، وتريق الدماء ، بين أهل الاديان ، فضلا عن أهل فروع الدين الواحد .

والواقع ، ما كانت الفروع المذهبية ، لتثير تلك القلاقل والفتن ، لو

---

(١) من ١٣٢٥ لعام ١٣٥٤ م راجع مهذب الرحلة ، مطبعة بولاق الاميرية ١٩٣٤

كان القوم أهل علم ومعرفة ، ولكن جهلهم ، واستمساكهم بالقشور دون اللباب . وعسى أن نعذر أولئك القوم في قتالهم ، وتناحرهم تناحر القردة ، إذا نظرنا إلى ضيق عقليتهم ، وسعة غباوتهم ، وزخب جنونهم ، إذ يذكر رحالتنا ، أنه حين دخل المسجد ليصلي الجمعة ، في مدينة الجامعات والعلم ، وأئمة العربية « البصرة » ألفى الخطيب ، يحطم اللغة العربية ، شر تحطيم ، فبكى وقال أيكون هذا في مدينة النحاة والفلاسفة والمفكرين !! ولما انحدر الى السوق ألفى جموعا محتشدة وخصومات مستطيرة ، فدنا مستطلعا ، واذا تلك الخصومة هي من أجل أبي بكر وعلي !!؟ هؤلاء يصرخون : أبو بكر أفضل ، وأولئك يضجون : بل علي افضل ! فوقف ينتظر النهاية ، وإذا برجل يرفع يديه ويصرخ ، - ويظهر أنه مشعوذ - ويقول : سأصمد الى المئذنة وأقول : تحركي بحق علي ، فان تحركت فعلي أفضل ، فقال الجميع هلم ، فصمد ونادى في أعلاها ، تحركي بحق علي ، فأصاخت مؤتمرة بأمره وتحركت ، فصفر الآخرون ؛ وبدا من بينهم رجل عملاق ، وصرخ غضوبا : تحركي بحق أبي بكر فتحركت !! .

وهكذا كانت أحجار المئذنة أفقه لكتاب الله وأعمال الأئمة وإيثار المصلحة وجمع الكلمة من الجميع حيث اعلنت فضلهما معا مرتين .

وهذه الخصومة التي يرويها رحالتنا ليصور لنا سذاجة القوم وطفولتهم ، تعطينا فكرة أن القوم متحدون لو تحركت عقولهم حركة تلك الاحجار !!

كما يذكر أنه حين دخل الاناضول ، وأراد أن يصلي في احدى

المساجد، لم يكد يكبر تكبيرة الاحرام ويشرع في قراءة الفاتحة، حتى أحس بالكمات تتساقط عليه من هنا وهناك، فصرخ، يا قوم ماذا جنيت؟ فقالوا: أنت شيعي ترسل يديك في الصلاة (١) فقال: بل أنا سني مالكي، وفي مذهبنا إرسال اليدين، فقالوا: أنت كاذب!! فوالله لم يصدقوني حتى ذبحوا لي أرنبا، وأطعموني إياه فأكلته، ـ وكنت جائعاً ـ! وهكذا لم يحقن دمه إلا إفتداؤه بالأرنب إذ الجريمة وقعت!!

ولم تكن أمثال هذه السخافات في الأمصار النائية عن مهبط الوحي فحسب، بل وجدناها تسربت حتى اليه، فهذا صاحب تاريخ الخميس (٢)، يذكر أنه حين أحرق جانب من المسجد النبوي المطهّر، لاهمال بعض الفرّاشين عام ٦٥٤ هـ، زعم رئيس المؤذنين «ابراهيم بن محمد الكنّاني» أنه وجد بعد الحريق، بيتين مكتوبين على الجدران هما.

لم يحترقْ حرمُ النبي لريبةٍ تخشى عليه وما بـه من عار
لكنها أيدي الروافض (٣) لامست تلك الرسومَ فطهرت بالنّار

---

(١) سبل اليدين وتكتيفها قضية ليس لها وزن بالنسبة لصحة الصلاة أو عدمها، على ان الامام جعفر الصادق والامام مالك قالا بالاسبال، والشافعي وابو حنيفة واحمد وزيد الشهيد قالوا بالتكتيف، وهناك من توسط كالاوزاعي فاجاز الامرين معا.

ومن هنا يتضح لقرائنا ان المسئلة اختيارية في الواقع لدى الشيعة والسنة باعتبار المجموع.

(٢) ٢ ـ ٣٧٥

(٣) سيأتي بحث الروافض في هذا الكتاب

وأظرف ما قصه علينا صاحب « الرياض الخزعلية » (١) من حماقة تلك الاجيال ، المتأخرة المنحطة ، أن رجلا اسمه عمر ، نزل في بعض قرى قزوين ، وهو يجهل طفيليات الفروع المذهبية ، وأمراضها القاتلة ، التي دسها السفهاء على عظمة مثل القرآن العليا ، وكل ما يعرفه عن نفسه ، أنه مسلم يؤمن بالله ورسله وما أنزل الله من كتب عليهم جميعاً ، فسألوه عن اسمه فاجابهم بكل بساطة :عمر ، فلم يجد الا الصفعات واللعنات تنصب عليه ،فظن أن فاتكا اسمه عمر أساء اليهم فخالوه هو ، فقال : يا قوم : إن اسمي عمران ، وهو يظن أنه بذلك يدفع عن نفسه شر التهمة والريبة به فاذا الشر يتفاقم والصفعات واللعنات تتضاعف ، فعجب واذا هم يقولون له، كنت عمر فزدت (٢) على اسمك الالف والنون من عثمان ، فشرك تضاعف !!

وهذه القصة المضحكة تشبه ما رواه محمد بن عقيل في كتابه «العتب الجميل » (٣) أن عليّ بن رباح كان اذا دخل دمشق وسئل عن اسمه يقول: « عُلَيْ » بن رباح خشية ثائرة العامة ، وأن يمصروا منه ما عصروا من... المحدث المظيم العلامة «النسائي»، وكل ذنبه أنه حدثهم بمناقب امير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه . (٤)

وقد تجاوزت هذه السخافات ، العامة والاعماد الذين يطربون لها ،

---

(١) ص ١١٤

(٢) الرياض الخزعلية ١١٤

(٣) ص ٤٠

(٤) دخل النسائي دمشق عام ٣٠٣ وخرج مريضا وما لبث ان مات المختصر لابي الفداء ١ – ٦٨

نظراً لصغر عقليتهم ووهن نفوسهم ونـدرة تفهمهم ، الى الذين ينتسبون الى العلم أو يتزينون بالبسته ، فرأينا في عام ١٠٥٠ شجارا محتدما في جامع « همذان » بين أبي القاسم الحاسمي الشيعي ، ورفيع الدين السني حول التفضيل وانتهائهما آخر الامر الى تحكيم أول داخل المسجد(١) ولو أنصفا الحكما كتاب الله « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » ولو فعلا ذلك لارضيا الله ورسوله واهل بيته واصحابه ، وكانا أكبر قدرا في عين الاجيال .

وهذا السيد رشيد رضا يذكر في كتابه «تاريخ الاستاذ الامام»(٢) أن طائفة من الشيوخ العشريين كانت تذيع في العصر التركي، أن الشيعة مزمعون أن يهدموا قبة النبي صلى الله عليه وسلم لالقاء بغضهم وكراهيتهم في أنفس العامة المساكين .

على أن الانحطاط في الفهم والصغر في العقلية زج بالملوك وافضى بهم الى اراقة الدماء باسم الشيعة حينا والسنـة طورا ، فالسلطان التركي كان اذا تغلب على الايرانيين واستولى على بغداد ، أستحل دمـاء الشيعة من فرس وعرب ، كما أن شاه ايران اسماعيل الصفوي كان اذا تغلب على الـترك ودخلها ، استحل دماء السنيين من فرس وترك وعرب ، وفي عام ١١٥٤ ﻫ رغب الايرانيون في التفاهم ، فطلبوا الى السلطان الاعتراف بالمذهب الجعفري فابي منقاداً لاعشار الشيوخ الجهلة (٣) .

---

(١) اعيان الشيعة ٧ ـ ٣٢٠ (٢) ص ٩٣٥

(٣) كتاب «اربع قرون من تاريخ العراق» ص ١٧ و ٥٤و٧٠ و١٣٧ و١٤٠

وأمثال هذه الحوادث المخزية ، في عصور الانحطاط وافرة جدا، حتى ان الامام يحيي أضطر أن يحارب هو ووالده الترك ثمانية عشر عاما (١) ١٣١٠ - ١٣٢٨ كما حاربهم جدهما الاعلى « الامـام المطهر » من قبل ثلاثين عاما (٢) ثم كان الصلح ، ومن شروطه : يسمح للامام يحيى بتعيين قضاة من رجال المذهب الزيدي، كل ذلك كان باسم الوحي الذي انزله الله لاسعاد الانسانية

وقد تعقب المؤرخون هذه الحوادث وجمعوها لتكون عبرة للاجيال الحديثة ؛ الواعية اليقظة ، لان شرًا من الكفر بالوحي الالٓهي ، هو سوء فهمه ، واتخاذه إداة تفرقة وشقاق ، وإبادة بين أبناء الانسانية ، على أن جمهرة تلك العصور المنحطة ، لا تخلو من رجال ، تبتلوا في سبيل جمع كلمة الانسانية ، وتحرير العقول، والرجوع الى روح السلف الصالح أمثال الشريف الرضي ، والفيلسوف الغزالي والفقيه العز بن عبد السلام والمجتهد ابن تيمية والمؤرخ ابن خلدون ... وماعلق في كتابات بعض هؤلاء من أمراض عصرهم هو يسير ، يشفع له ما قدموا من خدمات وثروة خالدة .

وهكذا استمر الانحطاط الفكري ، وسقم الفهم يمتد في الاجيال ، ويستغلظ في القرون، والامة تنحدر من سيء الى اسوأ ولا تفلت من بلاء كبير الا لتسقط في بلاء اكبر، من خلافات طائشة ، وخصومات رعناء ، حتى رأينا أحداثا مخزية نربأ بكتابنا أن ندون فية شيئا منها ، ونحن الذين أخذنا على أنفسنا ان نصور أحط ما نجد ، ولكن ما رأينا من انحطاط ، وايم الله

---

(١) آخر القرن العاشر الهجري

(٢) تاريخ اليمن للواسعي ، وتاريخ سيديو .

راعنا ، فاحجمنا مكرهين ، إذ ما كان يدور في خلدنا ، أن امة يكون بينها هذا المنار ـ الشاهق ، من الحكمة والعلم والمعرفة ، والانسانية والنبل والشرف والاجتماع القرآن المجيد... تبلى بأمثال أولئك، الذين تبرأ عصورُ الجاهلية الوثنية ، وما فيها من عبادة جن وملائكة ونار وكواكب وحيات وقرود من أمثالهم .

ولعل بعض قرائنا ، يحسبون ان المصيبة ، كانت على أشد ما تكون لهيباً ، واستطارة ومقتاً وبلاءً ، وخروجاً عن روح الاسلام ، وجلال الوحي ، في الأعصر المنحطة ، بين السنة والشيعة فحسب ، لا لا ، انها كانت بين الشيعة أنفسهم ، وبين السنة أنفسهم (١) ، ويكفي نظرة واحدة عابرة ، الى بعض تلك الاسفار الضخمة ، والى حواشيها المستطيلة ، والى ما يكتبه جهلة اهل المذاهب في الطعن على بعضهم ، لتكون آية على صدق ما نوهنا به .

وكم يؤسفنا أن يراق الاصلاح الذي وضعه الله في وحيه للوقاية من شر هاتيك الامراض ، فأضاعوه سدى بينهم ، ويتراشقوا بالمؤلفات السقيمة والزبر الطافحة بالسموم ، وغرهم ما جمعوا لانفسهم من طفيليات وأحقاد ، ناسين أنه حقّ عليهم قوله تعالى « فتقطعوا امرهم بينهم زبرا (٢) كل حزب بما لديهم فرحون » (٣) .

---

(١) راجع في ابن الاثير ٨ ـ ١١٦ فتنة الحنابلة بغداد

(٢) اي كتبا مفردها زبور ، وقد اطلق على مزمير داود .

(٣) المؤمنون ٥٤ .

فهم عصور النهضة الحديثة

إن مقدم نابليون الى الشرق ، كمقدم الاسكندر تماما ،أوصل الشرق بالغرب ، وأضاء مصباح العلم والمعرفة ، وأزاح الغطيط عن الهاجعين،ومزق سجف الظلمات ، وقد أوجعه أن يرى المجتمع العربي. الذي قرأ عنه كثيرا وأعجب برسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ، على الحال التي شاهدة عليها ، فشرع يوقظ روح العلم والنهضة ، ويؤسس مراكز للطباعة ، ويبعث في النفوس الوعي ، وحب التنقيب عن الآثار ، واستخراج المعادن ، فكان فاتحة ذلك الخير الكبير ، الذي اكتشفت فيه عجائب آثار اجدادنا ، كحجر رشيد الهرغلوفي (١) الذي حل العلماء على ضوئه رموز اللغة الهرغلوفية القديمة ، وهكذا كان نابليون كالاسكندر، طالع يمن ونهضة،ورائد علم ومعرفة واجتماع ،ولا غرابة فأبطال الانسانية أبداً ، يحملون قلوباً كبيرة وعقولا جبارة نبيلة .

وكم تأخذك الدهشة ، حين تعلم أن نابليون أسرّ الى مرافقه الخاص المؤرخ « أوسكار » أنه اعتزم أن يعلن اعتناقه الاسلام (٢) لأنها هزته سيرة مؤسسه ، كما شغف بتاريخ خلفائه الاول ، لا سيما سيدنا عمر رضي

---

(١) اكتشفه صدفة قائد فرنسي عام ١٧٩٩ وحل رموزه العالم شابليون راجع كتاب سواء البيد ص ١٤ و ٢٣

(٢) ليس نابليون أول فاتح تعمق مثل الانسانية العليا في الاسلام فتملقها وملأت قلبه بالايمان فاعلنه « راجع ما كتبه الامير شكيب أرسلان في مجلة « لاناسيون آراب » وكتاب « إخاء اربعين عاما ص ٣١٦ »

الله عنه ، وما خلف في العدل الانساني ، والتواضع المثالي ، من صفحة لا تزال طريفة مؤثرة ؛ في العالم حتى اليوم .

وإن من بواعث هذه النهضة الحديثة ، رجالا هبوا على أرفع منائر الخلود، ينادون بالتحرر والانطلاق من أساطير عصور الانحطاط، والرجوع بالفكر والقلب ، والنفس والفهم ، الى العصور الذهبية الاولى ، أمثال السيد جمال الدين الأفغاني ، والشيخ ميرزا حسين الشيرازي ، والاستاذ الامام ، وآل كاشف الغطاء ، وعبد العزيز جاويش ، وطنطاوي جوهري ، وعبد العزيز الثعالبي . والسيد جعفر بن محمد الكتاني، والامير علي الهندي، والسيد أحمد خان « مؤسس جامعة عليكرة » والسيد رشيد رضا والامير شكيب ارسلان والامير عبد القادر الجزائري ، والعلامة التركي علي القدسي القنوي (١) .

وإنك إذا رجعت الى جهاد هؤلاء الاعلام ، واستوعبت أعمالهم ، وانعمت نظرك فيما كتبوا ، الفيت فكرا وفهما للاسلام عميقاً، وذكاء خارقا وإنسانية مثالية ، وحملا لهم الاسلام وأعبائه ، ونضالا ومراسا ساميين ، أضف الى ذلك ما كتبه برزة المستشرقين النبلاء الذين أوقفوا أنفسهم للعلم والمعرفة ، وأخلصوا النية لله والحق والواقع، امثال كارليل وتولستوي وهدلي وبرناردشو ...

أكنت تتصور أن عالما سنيا ، ينزل في ايران ، لا كما

---

(١) مؤلف رسالة « الفرق الاسلامية كلهم مسلمون » دمشق المطبعة الهاشمية ١٣٦١ .

تنزل السوّاح ، أو مستطلعوا الآثار ، أو روّاد التريض والاستجمام ، وانما ينزل كالغيث للاحياء والانبات ، وكالنار للاخراق والتطهير ، وكالنور للهداية والاشراق .

أجل نزل السيد جمال الدين الافغاني ، السني ؛ في قلب بلاد الشيعة وعاصمتها « طهران » ، وأخذ يلقي محاضراته ومواعظه،على العلماء والجماهير، فعرف قدره الاحرار وشايعه عباقرة العلماء ، وحسبك لتعلم — أيّ حرية يحمل أولئك العلماء ، وأي اخلاص وأيّ تقدير واعجاب للعلم وأهله — أن كبير مجتهدي الشيعة . في ايران . الشيخ ميرزا حسين الشيرازي .أيده كل التأييد (١) وأعلن أنه معه في دعوته الى النهضة . اذن فلا تعجب ولا تستغرب . اذا سمعت أن ذلك الضيف السني الغريب في نظر المهاوس الحمقى استطاع أن يرغم نفس شاه ايران . أن يقدم له الاعتذار . ويطلب منه العفو . بواسطة السلطان عبد الحميد .حتى قال بكبرياء الاخلاص وشجاعة الجهاد . وجرأة التضحية . « عفونا عن الشاه.. عفونا عن الشاه » . وهل كان يدور في خلدك — لولا بركات النهضه الحديثه — أن المؤتمر الاسلامي . المنعقد بالقدس . يتشرف باجتماعه في المسجد الاقصى . بالصلاة خلف المجتهد الكبير السيد محمد آل كاشف الغطاء ؟ (٢) بل هل كان يدور

(١) تاريخ الاستاذ الامام ص ٦٥

(٢) نحسب العامة يتخيلون ، أن أرباب الفروع الاسلامية ، لا يصح أن يقتدي بعضهم ببعض ، في أداء الفريضة ، وهذا خطأ فاحش لان التوجه ليس هو الى الامام وانما هو الى الله ، والعبادة واحدة له اذن فكل ما للامام هو حفظ النظام واجتماع الكلمة ، على أن الأئمة والمجتهدين القدامى أنفسهم ، كان يصلي بعضهم خلف بعض

في خلدك ، أن كتابه « الدعوة الاسلامية » يتلقفه علماء السنة ، قبل علماء الشيعة ، ويستوحون أهدافه العليا الكريمة . وإذا كنا نريد أن نقدم الى قرائنا ، منارة المجد الشاهق ، الأمير شكيب أرسلان وما أحرز من ثقة غالية ، وإعجاب وإكبار واعتراف بكبير جهاده ، في كل شعب من الشعوب الاسلامية ، وما أحرز من مكانة وتقدير في نفوس زعماء العرب والمستشرقين ، لما رأينا عجبا أن يهتف المؤتمر الاسلامي الكبير المنعقد في الهند ، حين استعرض ، أي مسلم أدّى واجبه باهتمام واخلاص ونبل وجهاد واجتهاد ، لكل الشعوب التي تدين بالاسلام ليكون له شرف رياسة المؤتمر ، أن يهتف : أمير البيان أمير البيان .

ولم يقل أحد : إن اجتهادك يخالف اجتهادي ، لان كل واحد منهم يعلم ان دوائر المجتهدين منضوية بلا ريب تحت دائرة الاسلام الواسعة الشاملة للجميع ، فهذا أبو حنيفة كان يصلي خلف الأئمة جعفر والباقر وزيد « رضي الله عنهم » كما أن مجتهدي المذهب الجعفري عبد الله العمري ومحمد بن فضيل واسماعيل بن موسى الكوفيين كانوا يصلون خلف أبي حنيفة ، ومثل هذه المسئلة بديهية لا تحتاج الى إفاضة ، لكن لما رأى المجتهد العلامة السيد محسن الامين أن بعض العقول المتحجرة تأبى ذلك ، نص عليها بقوله « أيها الاخوان الشيعيون : عليكم أن تعملوا بما أمركم به إمام أهل البيت جعفر بن محمد الصادق ، من التحبب الى إخوانكم أهل السنة من زيارتهم والصلاة في جماعاتهم وتشييع جنائزهم وعيادة مرضاهم وتجنب كل ما يوغر صدورهم » أعيان الشيعة ١ ـ ١٣٦ . والسيد يعلم أن السجود على الارض أو ما نبت منها شرط لصحة الصلاة لدى الامام جعفر ، ولكنه يعلم أيضا أن الأئمة والمجتهدين يهدفون الى غرض واحد قبل كل شيء ، وهو الانضواء تحت راية الاسلام العامة فما ثبت لاحدهم من اجتهاد يجوز الاخذ به للجميع .

على أن هذه النهضة الحديثة التي نستمتع اليوم ببركاتها ، ونستعذب ثمرتها ، ونمتح من خيراتها ، هي من حسنات أولئك الاعلام بـلا ريب ، من شرقيين وغربيين ، وقد حمل رايتها من بعدهم ، أعلام استطاعوا أن يمثلوا دورهم في الحياة اليوم ، أنبل تمثيل كالسيد محسن الامين والسيد محمد الصدر والشيخ محمد أحمد شاكر ، والشيخ سعيد العرفي والعلامة محمـد فريد وجدي ، والسيد محمد إقبال والشيخ عبد العليم الصديقي ومولانا ابو الكلام أزاد وعارف بك النكدي ورجال جمعية خدام الدين بلاهور ، وجمعية الواعظين الجعفرية ، المنتشرين في اوربا وأفريقيا والملايو ، وجمعيـة شبـاب الاسماعيلية في بومبـاي وجمعية كراتشي الاسلامية ، وجمعيات « ماشو » الاندنوسية (١) .

وأخيراً طلعت مصر برسالتها الخالدة لاقامة هذه الدعـوة على أصول متينة ، فاسست بالقاهرة « دار التقريب بين المذاهب الاسلامية » وأصدرت مجلتها المشهورة « رسالة الاسلام » فاجتمع بها الازهر والنجف ، والجميـع يهدفون الى الوحدة والاجتماع ورأب الصدع .

وإنا نرفع صوتنا ، ضارعين الى الله ، أن يفسح في خلده لأولئك ، ويمد في عونه ورعايته لهؤلاء ، وما أجل قوله تعالى « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليـه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا

(١) راجع خلاصة تقرير البعثة الازهرية الى الهند في مجلة الجامعـة الاسلامية الحلبية من عدد ٢٦٥ لعدد ٢٧٣ لعامها التاسع عشر ، و « اندنوسيا الثائرة »

تبديلا » (١) ويسرنا أن نتوجه الي هؤلاء الأعلام ليتكاتفوا مع دعاة الأديان العالمية الكبري ، ويناضلوا مجتمعين ، روح المادية الطاغيـة ليصدق عليهم قوله تعالى « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » (٢)

ولنا كبير الامل أن يأتي يوم ترفرف فيه راية الوحي الالآهي ، على الجميع ، بالسلام وجمع الكلمة ، التي تضم أبناء الانسانية جمعاء ، فلا نسمع بعد ذلك شرقا ولا غربا ، ولا عجما ولا عربا ، بل نسمع كلمة الله والانسانية والسلام العام وحرية العقيدة المتسامحة.

ان الدين عند الله الاسلام

إعجاز القرآن مسألة ، تأخذ حظوظها الوفيرة من العلم، في كل عصر، تأخذ كلّ ما في أنفس العلماء ، من أشواق وإلهامات وبحوث ونقد وتدبُّر . ومع كل ذلك فالعلم لا يزال واقفاً حيال الدرجة الأولى ، من معراج إعجاز القرآن ، وأمامه درجات ودرجات، قد تنتهي الحياة والوجود، وقد ينتهي الانسان بخيره وشره، وعلمه وجهله، وينقضي كلُّ شيء ، وإعجاز القرآن لا يزال جديداً بعيداً ، لأن جِدّته مستمدةٌ من قدرة الخالق العظيم، الذي أودع فيه ، ما يتناسب مع جلال علمه الأزلي الشامل .

ونحن لو رحنا نستجلي قبساً ، من ذلك الاعجاز المتغلغل في أعماق

---

(١) الاحزاب ٢٣

(٢) النساء ١٣١

آيات القرآن ، ولو في آية واحدة ، لكي نُدلِّل على مدا أبعاده المترامية ، لوقفنا طويلاً جداً .

ها نحن أولاء ، نتلو بين يدي قرائنا « شهد الله أنه لا إلٓه إلا هو ، والملائكة وأولوا العلم ، قائماً بالقسط ، لا آله الا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الاسلام » (١) . طالبين اليهم ، أن ينعموا أنظارهم في أوجه الاعجاز ، وسمو الأهداف ، فانهم بلا ريب سيتجلى لهم ، فهم قوله تعالى « ان الدين عند الله الاسلام » يتجلى لهم ، لا في عالم الأديان فحسب ، ولا في عالم الملائكة فحسب ، ولا في محيط الأكوان والنواميس فحسب ، بل حتى في ذات علم الله ، الذي أودع كل ذلك الاعجاز .

نعم حمل وحي الله الى الانسانية الاسلام في كل العصور ، بمعناه الحقيقي السامي ، فكان هو ما بشر به الرسل جميعاً ، وكان هو فطرة عوالم الأرواح الطاهرة ، المسلمة وجهها لعظمة خالقها ، وكان هو فطرة نواميس الأكوان ، وغرائب الوجود ، ينكشف للعلماء في اسلامها بكل أوضاعها وكيفياتها ، ومراكزها في الفضاء ، الى صانعها القدير . اذن فنفس العلم المادي ينتهي الى الاسلام ، مهما جدف أهله .

وأرى العلم كالعبادة في أبعد غاياته الى الله أدنى

اذن فمنطق حقائق الوجود ، ومجلى عوالمه الروحية والمادية ، الاسلام ، والوجود وكل ما فيه ومن فيه ، نافذة كبرى تطل باسلامها الخالص على جلال صانعها .

وكم من حسرات وغصات ، ابتلعناها على مضض ، لدى احتفاء السطحية

---

(١) آل عمران ١٨ و ١٩

الرعناء ، بحثالة الطفيليات وقشور المادة المحدودة ، التي تعتقد ، وهي في غمار أوهامها ، أن كل أهداف آية « إنَّ الدين عند الله الاسلام » هي حصر الانسانية في أغلال الأنانية اللعينة ، وتصفيدها بين جناحَي الذاتية البغضية ، الملتوية على نفسها كالأفعى ، المتمردة على أفق الروح الرحب ، وسعة رحمة الله وهداه الشامل .

هكذا تخيلوا ، أن الآية الآلهية المعجزة الشاملة ، تضرب دون الانسان وأخيه الانسان ، نطاقاً من الخصومات والتناكر ، وحواجز وسدودا من سوء التفاهم ، محتجين لفهمهم الضيق بالآية الثانية « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » ذاهلين عن تلاوة الآية السابقة ، التي بدونها لا يستقيم تمام معناها ، ولا تتجلى أهدافها البعيدة الذاخرة في كل وحي سماوي . «قل آمنا بالله،وما انزل علينا،وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وما اوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » (١) .

والحقيقة أنه ليس من غرضهم ، ولا غرض أي انسان في الوجود ، مهما ضؤل فيه وازع الايمان بالله والعلم ، أن ينتصر للباطل والجهل ، على الحق والمعرفة ، اذ لو فطنوا للآية السابقة ، وعلموا أن الاسلام هو اخلاص الايمان بوجود الله ، كما جاء به مؤسسو الأديان العالمية الكبرى جميعاً ، لما

(١) آل عمران ٨٤ و ٨٥ ، وراجع البقرة ١٣٦

زووا الآية وحجزوها ، دون آفاقها الرحبة ، وتخيلوها داعية للقطيعة الانسانية ؛ وغاية لاحياء النعرات الذاتية البغيضة .

ونحن الآن نبسط بين أيديهم حقيقة معنى الاسلام العام ، كما أراده الله في آيات القرآن، ليروا أن الاسلام هو كنه الأديان السماوية وحقيقتها، وليس وراءه الا الوثنية والاشراك (١) ،ولا نرتاب أنهم سيهتفون باخلاص في كل محراب مقدس « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فان يقبل منه » ومن هنا يفهم قراؤنا أن التهديدات بعدم النجاة في الآخرة؛ المشاهدة في كل وحي سماوي، لا يقصد بها سوى المشركين والوثنيين والمحاربين له . والمشركون هم الذين أشركوا في عبادة الله سواه من خلقه ، كالأحجار والأبقار ... معتقدين أن الله روح يحل فيها . والوثنيون هم الذين اتخذوا الأوثان معبودة، لتقربهم ، بزعمهم ؛ الى الله زلفى . والأوثان بأوسع معانيها ، هي كل ما عبد من دون الله ، ويطلق عليها العهد القديم اسم « بعول» والقرآن

---

(١) الشريعة الاسلامية تبيح الزواج من النصرانية واليهودية ،لانتمائها إلى دين سماوي ، يؤمن به المسلم ، ويعتبره داخلاً في دائرة الاسلام الشاملة ، فلا يكون منه في حقها ما يسوء من جهة دينها ولا تبيح له الزواج من الوثنية والمشركة لخروجهن عن دائرة الاسلام، اذ لا يؤمن أن يصدر منه ما يسوؤها من جهة دينها، لدى الغضب ، لعدم مشاركته لها في تقديس ما تدين به ، ومن هنا تعين الشريعة الاسلامية تحريم زواج المسلمة بمن لا يشاركها في تقديس دينها ، إذ الاحكام عادة تأتي عامة لتنظيم حياة الاسرة الدائمة، ذلك لان شعلة التعلق الجنسي الناجمة عن الشغف لا تستمر ، وكل الغاية من ذلك ، حفظ كيان المرأة ، وكريم عواطفها ، فأكثر ما تقع الخصومات لدى التشفي والغضب بتصغير المقدسات ، وسيأتي ذلك مفصلاً في كتابنا « المرأة والتشريع »

اسم « طواغيت » .

وبداهة يفهم قراؤنا أن سيدنا موسى ، لم يخرج من دائرة النجاة في الآخرة ، الا الذين حاربوا دعوة الاسلام التي جاء بها ، وكذلك سيدنا المسيح وسيدنا محمد صلوات الله عليهم ، وهذا شأن الرسل من قبل .

وهكذا نجد أهداف التهديدات في جوهر الوحي الالهي ، في كل الاديان واحدة ، وهذه الوحدة واضحة ، وإن خال بعض الدارسين نصوصها متعاكسة متضاربة ، لا تتحاشى أن تدخل المؤمنين بوحي الله في كل دين ، مع المشركين والوثنيين ، في سلك واحد من سوء العاقبة ، غافلين كل الغفلة عن أهدافها الحقيقية التي المعنا اليها .

والواقع ، أن تلك التهديدات ، لا تشمل الا الذين نابذوها معاندين ، منفلتين من روح الاسلام الذي جاء به جميع الانبياء ، معرضين عن دعواتهم ، حاملين لهم ولها ، الضغائن والاحن ، والخصومات ، من غير جريرة أو درس أو نظر ، عناداً وتقليداً .

أجل هذا شأن كل نصوص التهديدات التي جاء بها الرسل جميعاً ، وقد حرر هذه المسئلة الدينية الدقيقة ، الامام الغزالي في كتابه « المستصفى » كما حررها القديس توما الأكويني في الخلاصة اللاهوتية ، بل حررها قبلهما وبعدهما ، جلة العلماء المحققون من أهل الأديان ، بحثاً ونظراً في النصوص الدينية وأهدافها .

والحق ، ان التهديدات لا تشمل المؤمنين بالوحي الالهي - مهما نأى زمن ذلك الوحي أو دنا - كما تشمل الوثنيين والمشركين ، والمعاندين المخاصمين

وقد فطن لعدم شمولها هذا ، في فاتحة الدعوة المسيحية ، « غمالائيل » حين أمر مجلس الكهنة اليهودي، على قتل تلاميذ سيدنا المسيح الذين كانوا يبشرون بدعوة الايمان ، وينادون بها في كل مكان ، ظاناً ذلك المجلس ، أنهم غير ناجين في الآخرة ، لأنهم ، في زعمه ، لا يبشرون برسالة سماوية . فطن ذلك الحبر العظيم ، معلم الناموس ؛ فوقف محتجاً على إصراره غير الشرعي: « تنحوا عن هؤلاء الناس واتركوهم ، لأنه إن كان هذا الرأي ، أو هذا العمل ، من الناس ، فسوف ينتقض ، وإن كان من الله فلا تقدرون أن تنقضوه ، لئلا توجدوا محاربين لله ، فانقادوا اليه » . أع ٥

نعم استطاع « غمالائيل » ، أن يقيم باحتجاجه الحجة العلمية الصحيحة، التي يعد الاعراض عنها ، رعونة وحماقة وقتلا للمعرفة والواقع ، وقد فهم أعضاء المجلس منه ذلك ، وأذعنوا لرأيه ، إذ أدركوا جميعاً ، أن الله محال أن يؤيد الداعي الكاذب وأتباعه ، كما استطاع أن يفهمهم ، بما أقام من دليل قطعي ، أن التلاميذ ناجون في العالم الثاني ، لأن تأييد الله لهم ، على الرغم من كل المقاومات ، والحواجز والسدود ، التي توضع أمامهم ، دليل على نجاتهم واجتباء الله لهم

والآن فهمنا أن الاسلام ، هو سبب النجاة ، في كل وحي سماوي ، وأن التهديدات التي نشاهدها هنا وهناك ، لا تقصد أهلها أبداً ، وأن لا أصفاد ولا تفرقة ولا امتياز ، بين جوهر وحي ووحي ، كما لا يكون ذلك بين إنسان وإنسان ، يدين بذلك الجوهر ، ويشتمل على عقلية ناضجة ، ونفسية مؤمنة صادقة ، تقيد أعمالها ونواياها ، وبواعثها وتصرفاتها ،

بما أوحى الله .

هذه حقيقة الاسلام في الوحي السماوي ، وهذه طريق نجاتـه ، ولو كانت تغييرات الظروف الخاصة ، وطقوسها الزمنية ، وبواعث تشريعها وآثار تقاليدها ، هي مراد الله من لفظة « الاسلام » في وحيه العـام ، الذي أنزله على الرسل جميعا ، صلوات الله عليهم ، لضاقت دائرة النجاة على أهل وحي بعينه ، وحاشا لله أن تكون بذلك الضيق المخيف المرعب . ولو كانت كذلك لكان إبراهيم واتباعه المؤمنون الكرام ، وإسحاق وولده إسرائيل والأسباط الأبرار(١)،وموسى وقومه،والمسيح وأتباعه وحواريوه المصطفون وكل الأنبياء،من نوح وهود الى يونس وشعيب والياس واليسع ، ما عرفنا منهم وما لم نعرف ، لكانوا جميعاً غير مسلمين أي من الخاسرين في الآخرة!ولا يقبل مثل هذا الرأي المجرم الهدام،حتى المشركون والوثنيون والجهلة والأغبياء ، والحمقى المغرورون ، والماديون الملحدون .

---

(١) يعجب بعض القرّاء ، لكل هذا التمجيد لبني اسرائيل ، آباءاً وذرّية ، ولو علموا أن القرآن ، كتاب عالمي سماوي انزل للخير والهدى والمحبة ، وإصلاح الانسانية ، لما عجبوا .

نعم يمجد القرآن المصلحين ، من كل قبيل ، ويكشف قبح أعمال الاشرار ، إنذاراً وتوجيها ، كذمه شح قارون مثلا ، وعتابه على الذين آذوا موسى ، لدى توجه وثنية آمنت ، وليس من غرض الوحي الالهي في عصر من العصور عداوة أحد .

وانك ، لتجد في القرآن امتداح المصلحين الاخيار كموسى وهارون وداود وسليمان والياس واليسع وسواهم كما تجد التنويه بأعمالهم الخيرة ، وكرامتهم وطهارتهم ، أكثر مما تجد في نفس العهدين .

سبحانك اللهم ، ما أتم رحمتك . فقد أوسعت آفاق الاسلام ، حتى شمل بأضوائه وأقداسه ، وبركاته وسلامه ، وتسامحه وخيره ، إبراهيم وإسحق وإسرائيل والأسباط وموسى والمسيح والنبيين من قبل،وأتباعهم وأممهم وذرياتهم ، كما شمل خاتم الرسل،صلوات الله وسلامه عليهم ،وذريته وأتباعه ، فهم المسلمون الاول، ونحن بهم اقتدينا ، وعلى سننهم سرنا ، وبذلك الروي الطهور ارتوينا « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا،ونوحا هدينا من قبل،ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون،وكذلك نجزي المحسنين.وزكريا ويحي وعيسى والياس، كلٌّ من الصالحين ،وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً ، وكلاً فضلنا على العالمين . ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ، واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ، أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فان يكفر بها هؤلاء ، فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ، قل لا أسئلكم عليه أجراً ، إن هو الا ذكر للعالمين » (١) .

هكذا أنزل الله القرآن ، وأمرنا أن نؤمن ، وطلب الينا أن نسلم ضمائرنا وعقولنا وأنفسنا ، الى العقيدة بجلاله ووحيه ، « الذين آتيناهم الكتاب من قبله ، هم به يؤمنون واذا يتلى عليهم ، قالوا آمنا به ، إنَّ الحق

---

(١) الانعام ٨٢ الى ٨٩

من ربنا، انا كنا من قبله مسلمين » (١) .

والخلاصة، ان الله يأمرنا أن ندين بالاسلام ، كما دان به الرسل وأتباعهم من قبل ، وأن نستمسك به استمساكهم ، وأن نموت عليه ، كما ماتوا عليه « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » (٢) .

هذا ابراهيم ، أسلم وجهه لله محسنا ، بتجنبه عبادة الأصنام والأوثان ، وكل عوالم الوجود ، ودينه هو الدين الحسن ، لأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل ، والعلم الذي لا يدخله الجهل ، والنور الذي لا تقترب منه ظلمة « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا ، واتخذ الله ابراهيم خليلا » (٣) .

ها هو ذا يقول في دعائه لدى تشييد البيت الحرام ، « ربنا واجعلنا مسلمَيْن لك . ومن ذريتنا أمة مُسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، انك أنت التواب الرحيم » (٤) .

وهذا نبي الله نوح من قبل ، يعلن قومه أنه لا يبالي باعراضهم ، لأنه لم يطلب اليهم شيئاً في سبيل الدعوة الى الله الا أن يكون ، هو واياهم من

---

(١) القصص ٥٣

(٢) آل عمران ١٠٢

(٣) نساء ١٢٤

(٤) البقرة ١٢٨

المسلمين (١) . « فان توليتم فما سألتكم من أجر ، إنْ أجري الا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين » (٢) .

وهذا نبي الله موسى ؛ يخاطب قومه وهو يطلب اليهم أن يكونوا مؤمنين ، متوكلين عليه ما داموا مسلمين « وقال موسى يا قوم : ان كنتم آمنتم بالله ، فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين » (٣) بل هؤلاء السحرة ، لما شاهدوا عظمة آياته ، والقدرة الالٓهية المتجلية في عصاه ، وعلموا أن ما أتوا ، هم به ، ان هو الا سحرٌ وتخييل ، ليس له في الواقع من حقيقة ، أعلنوا ايمانهم وطلبوا أن يكونوا كقوم موسى ، مسلمين ناجين « وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » (٤) .

وهؤلاء هم حواريو سيدنا المسيح ، وتلاميذه البررة ، (٥) الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الايمان ، وأسلموا وجوههم وقلوبهم وضمائرهم ، لله رب العالمين ، ووجدوا في سيدنا المسيح نفحة السماء المقدسة ، واشراق

---

(١) ربما يظن بعض السطحيين ، أن نوحا ما تكلم العربية ، وقال لهم : أسلموا . نعم أمرهم بالايمان بخالق الوجود ، وتطهير عقولهم وقلوبهم ونياتهم من الايمان بغيره ، فنقول لاولئك : تلك الالفاظ التي أدت هذه الفكرة ، في أي لغة كانت ، هي الاسلام ، لان المقصود الروح لا الحرف ، ومعلوم أن الحرف قتال ! كما سيمر بك في الكتاب الثاني .

(٢) يونس ٧٢

(٣) يونس ٨٤

(٤) الاعراف ١٢٥

(٥) مت ١٠ - ٢

الحقيقة الخالدة ، ونور الله الحق ، هؤلاء هم ، يتوجعون لقومهم ، الذين لم يلبوا الدعوة الكريمة؛ وحين أحس سيدنا المسيح من أولئك الكفر والشقاق ومحاربة ما حمل اليهم من سلام ، نادى في الحواريين الى الانتصار لتعاليمه والعمل على تأييدها ، فكانوا عند حسن ظنه بهم ، حواريين مسلمين أطهاراً « فلما أحس عيسى منهم الكفر ، قال : مَنْ أنصاري الى الله ؟ قال الحواريون: نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » (١) بل هذا فرعون ، حين أدركه الغرق ، ولمس أن الله مع موسى ، وأنه رسوله الحق المؤيد بالخوارق، وأن الألوهية التي زعمها ، ان هي الا سراب وتدجيل ، قال « آمنت أن لا آله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل ، وأنا من المسلمين » (٢) أي من قوم موسى المؤمنين بالله .

وهذا دعاء سيدنا يوسف ، بعد أن أخرجه الله من السجن ، ورفع قدره ، وأسامه السلطان وردّ عليه أبويه وذويه « رب قد آتيتني من الملك، وعلمتني من تأويل الاحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلما والحقني بالصالحين » (٣) .

قد فهم قراؤنا ، أن الله ما أطلق لفظة مسلم أو مسلمين، على أمة خاصة، أو أهل دين خاص ، وانما على الذين أسلموا له ضمائرهم وعقولهم ، مخلصين صادقين من أهل الأديان جميعاً كما فهموا أن عباد المؤمنين بوحيه وبرسله في كل الاديان هم مسلمون صادقون ،وأنهم جميعاً يمنحون سعادة العالم الثاني «ياعباد

---

(١) آل عمران ٥٢ (٢) يونس ٩٠

(٣) يوسف ١٠١

لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . ألذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين » (١) .

وتأكيداً بأن هاتيك السعادة الأخروية ، ما هي الا لعموم المحسنين، من أهل الأديان جميعاً ، جاء الرد في الوحي ، على الذين يعتقدونها خاصة بأهل وحي دون وحي « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وان كان مثقال حبة من خردل ، أتينا بها و كفى بنا حاسبين » (٢) .

« وتلك الدار الآخرة ، نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين . من جاء بالحسنة ، فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة ، فلا يجزي الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون » (٣) « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (٤) .

هذا العموم الشامل ، لم يكن من الله في كل وحي ، الا لأن خالصة الايمان به عز وجل ، المتغلغلة في أعماق القلوب ، لذوي الأعمال الصالحة ، المستحقين سعادة العالم الثاني ، هي عائدة اليه سبحانه ، اذ هو وحده المطلع على كنه بواعث النفوس ، وحقيقة دوافعها ، ان كانت منبعثة عن خالصة الايمان أو سوى ذلك ، كما يعلم ما تستحقه من مثوبة أو عقوبة، لا يشاركه

(١) الزخرف ٦٨ و ٦٩
(٢) الانبياء ٤٧
(٣) قصص ٨٤ و ٨٥
(٤) الزلزلة ٧ و ٨

في ذلك مشارك . ولا يحتاج من يزكي له هؤلاء دون أولئك . أو يصدر له الاحكام والمراسيم . اذ هو أعلم بالجميع ومن الجميع من قبل خلق السموات والأرض .

هذه هي مثل الوحي العليا التي دعا اليها رسل الله جميعاً . وهذه هي اقداس رحمة الله الشاملة لكل أهل الانسانية . لم يفطن اليها الا ذوو الآفاق الواسعة . من أولي الفكر والعلم ومخلصي الايمان في كل الاديان .

ومن أجل ذلك . جاء الوحي يعلن . أن الخصومة من جراء سعادة العالم الثاني . وتجاذب أطرافها بشدة وعنف . واخراج هؤلاء وادخال أولئك . ما كانت في عصر من العصور . من شأن رسل الله . ولا من شأن أتباعهم المصطفين الأخيار . ذوي المراتب السامية في الايمان والدرجات العالية . وانما مأتاها من الدهماء السطحيين الذين تعلقوا بالطفيليات والقشور . وأهملوا اللباب من وحي السماء .

أجل هؤلاء يهود المدينة . الذين قالوا لنصارى نجران . حين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأكرمهم وأنزلهم في مسجده قالوا لهم يفاخرونهم : «ان سعادة العالم الثاني خاصة بنا» فغضب النجرانيون . قائلين « بل هي خاصة بنا » فنزلت الآية معلنة . أن سعادة العالم الثاني عامة . للذين اسلموا وجوههم لله وهم محسنون . وليست خاصة بأهل وحي دون أهل وحي « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى . تلك أمانيهم . قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ، بلى من أسلم وجهه لله . وهو

محسن . فله أجره عند ربه . ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) سواء كان اسلام وجهه على يد ادريس أو ابراهيم أو موسى أو المسيح أو محمد صلوات الله عليهم . وكذلك جاء الرد على حديثي الايمان من الأعراب المسلمين الذين فاخروا اليهود قائلين : ان سعادة العالم الثاني . خاصة بنا . ولا ينالها سوانا . فرد عليهم اليهود بمثل قولهم . جاء الرد الآتي . على هؤلاء وهؤلاء.واضحاً جلياً.بان سعادة العالم الثاني.لا تدخل في الأماني والاحلام « ليس بأمانيكم ولا أماني اهل الكتاب . من يعمل سوءاً يجز به.ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » (٢) .

والنتيجة من كل ذلك . أن الله سبحانه . يعلمنا أن سعادة العالم الثاني . ما هي الا لأهل الاسلام بمعناه الحقيقي . أي لجميع المؤمنين برسل الله ووحيه .

وكم يشجينا . أن الله سبحانه وتعالى . يعلن أن أبواب الجنة في العالم الثاني . مفتحة لعامة المؤمنين بوحي الله ورسله . في كل العصور . ويريدها قوم لأهل وحي . دون وحي في عصر خاص « واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب.أولي الأيدي والأبصار.انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل . وكل من الأخيار . هذا ذكر . وان للمتقين حسن مآب .جنات عدن مفتحة لهم الأبواب » (٣) .

---

(١) البقرة ١١١ (٢) النساء ١٢٢
(٣) ص ٤٥ الى ٥١

والآن يجدر بنا أن نقول للناس جميعاً : «ما دمتم فهمتم واقع مدلول كلمة الأسلام فهما علميا صحيحاً ، وما دمتم فهمتم أن نوحاً وقومه مسلمون ، وأن إبراهيم وقومه مسلمون ، وأن إسحق ويعقوب والأسباط مسلمون، وأن موسى وهارون وجميع الأنبياء مسلمون،فعلى م الشقاق؟وفي م التنابذ؟ ولِمَ نطرح هذه الروح؟روح الوحي الذي يجمعنا ويؤلف بين قلوبنا،عامدين الى فهمنا الملتوي ، وعبادة الحرف القاتلة ، واطاعة التقاليد وإيثار الباطل على الحق ، لِمَ نطرحها عامدين ؟! ولا نخجل من الله الذي نؤمن به،ولا من حملة وحيه الذين بلغونا إياه .

أجل لا نخجل أن نلقي عليهم مسئولية صغار أنفسنا،وحقارة أهدافنا، وأفن عقولنا ، وسوء نوايانا . وإنا لنقسم بجلال الله ، - ونحن صادقون في ما نقسم - إن لم نرجع الى تسامح الوحي الآلهي وسلامه ؛ وهداه وحبه وخيره ، لتظل الابادة والتدمير ، غاية علم الإنسان ،وتظل الفرقة والشتات هدف تشريعه ؛ وتظل المؤامرات والكيد شغل عقله ، فرحمتك اللهم اهد عبادك لنور وحيك،وخذ لهم من شهوات أنفسهم وبغضاء قلوبهم ،وضيق أفكارهم ، وانتصف لهم من سلطان غرائزهم بسطوة كبت الايمان بك ، وتأديب الخوف من انتقامك ودينونتك.

وإذا كان الله أنعم على أهل الوحي الآلهي جميعا ، المتقدمين منهم والمتأخرين باسم « إسلام » الذي هو روح الأديان السماوية وحقيقتها ، ليحمل بعضهم الى بعض ، روح الاخوة والسلام ، والحب والاخلاص ،

والنوايا الطيبة ، والايمان برسل الله جميعاً ، فهل يجمل بأهل فروعها ، أن يتناسوا تلك الجامعة الانسانية العالية العامة ، ويفخروا بالانتماء الى فروعهم ؟ متخذينها نبالا مسمومة يتراشقون بها ، وأغلالا وحواجز وسدودا. ألا إنه يستحيل أن يكون كل ذلك مراد الله أو مقصد رسله أو غاية مؤسسيها .

على أن روح الوحي الآلهي ، بمدلولاته الانسانية السامية، وإطلاقاته السماوية الفسيحة ، ومفاهيمه العلمية المحررة ، قد تيقظ ـ والحمد لله ـ في الشباب المثقف العالمي ، حتى علموا جميعاً أن دائرة الايمان العامة ، هي التي دعا اليها الأنبياء . فالقرائي والرابي والسامري ، المشتملة عليهم دائرة سيدنا موسى ، والكاثوليكي والارثوذكسي والماروني ، واليعقوبي والسرياني والنسطوري واللوثري المشتملة عليهم دائرة سيدنا المسيح ، والسني والجعفري والاسماعيلي والزيدي والعلوي والموحد والاباضي والمدوي ، المشتملة عليهم دائرة سيدنا محمد ، هم جميعاً منضوون في دائرة الاسلام ، التي شملت أولئك الرسل العظام صلوات الله وسلامه عليهم ، وجعلتهم إخوة في الله ، متحابين مسلمين اليه مشاعرهم وأحاسيسهم وإيمانهم ويقينهم .

وإنا نعتقد أن أولئك الشباب ، بعملهم هذا النبيل ، وفكرهم النير ، وإيمانهم الصادق الفذ وحبهم الانساني النزيه ، قد خطوا حياة جديدة ، للانسانية الجديدة ، ومثلا أعلى جاء به الوحي الآلهي قديما للأجيال.

هذا هو الاسلام ، بمدلوله السماوي الفسيح يجمل جميع أهل الأديان ، يهتفون من أعماق قلوبهم .

إن الدين عند الله الاسلام

واتّضح لنا إعجاز هذه الآية ،لدي نظرنا في أعماق التاريخ ،وتسمية الأديان ، اذ فهمنا أن جميع الانبياء ، أتوا باسلام العقل والقلب والعواطف، الى الايمان بالله ، ولكنهم لم يتخذوا اسماء خاصة لما دعوا اليه ، بيد أن اتباعهم أو سواهم ، هم الذين أطلقوا عليهم هذه الأسماء . فأي علاقة مثلا ما بين الوحي الذي أوحاه الله الى سيدنا موسى ، وبين « يهوذا » أحد ابناء يعقوب ، غير أن موسى من سبط لاوي ، الذي هو أخ يهوذا،وهي تسمية بعيدة جداً ، لم نرها مذكورة قبل ، « الملوك الثاني » (١) ، وأي علاقة بين الوحي الذي أوحاه الله الى سيدنا المسيح ، وبين الناصرة سوى أنها البلدة التي بشر الأنبياء بمجيئه منها (٢) .

ومهما يكن من شيء فان إطلاق نصرانية على ما أوحاه الله من شريعة الى سيدنا المسيح ، ويهودية على ما أوحاه الله من شريعة الى سيدنا موسى ، قد جاء متأخرا جداً ، حتى أنه لا يوجد أثر لهذا الاسم في العهدين .

---

(١) ١٦ — ٦ اي بعد موسى بنحو ثمانية قرون .

(٢) مت ٢ — ٢٣ ،ولا يرد علينا ان هذا النص غير موجود في العهد القديم ، وعدم وجوده لا ينفى ان الانبياء بشرت به ، وانه موجود بالمعنى ، والاصل في البشائر الروح الغالبة ، لا الحروف القتالة ، بحدودها التي تتحجر مع مرور الزمن وتضيق ! إذ بشائر الانبياء بمجيء « عمانوئيل المخلص الناصر » لاتكاد تحصى ، ولاريب ان اتباعه ناصريون نسبة اليه ، وكونه من أهل الناصرة بالذات ، زيادة في البشائر والماع اليها ، لذلك اطلق عليه اولياؤه واعداؤه « اسم ناصري » كما تجد هذا الاسم في تسعة وعشرين ،وضعا من العهد الجديد .

وأما نسبة الأديان الى مؤسسيها ، كما فعلت أوربة في العصور الأخيرة ، حيث قالوا : موسوية ومسيحية ومحمدية ، فانهم قلدوا بذلك أمم الشرق الأقصى بقولهم : برهمية وبوذية ولاوتسية ، نسبة الى برهمة وبوذا ولاوتسو .

وإنا نجد القراء قد أدركوا أن حقيقة دين ابراهيم ومحمد ، هي حقيقة دين المسيح وموسى ، « الاسلام » كما فهموا ذلك من كنه مدلوله واطلاقه على كل وحي آلهي ، أما التسمية يهودية أو نصرانية فهي تسمية خاصة لم يكن مدلولها منبعثاً من صميم فحوى الوحي الذي أوحاه الله لسيدنا موسى وسيدنا المسيح ، اذ الاولى نسبة الى « يهوذا » والثانية نسبة الى الناصرة ، وقد جاءت الاشارة الى ذلك في قوله تعالى : « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً »(١) ذلك لأن ما أوحاه الله الى ابراهيم، لم تكن تلك التسمية الخاصة من مدلولاته ، بل جاءت متأخرة جدا كما فهمنا ، بخلاف الاسلام الذي هو مدلول كل وحي، لذلك جاء اطلاقه عليه، كما جاء اطلاقه على وحي كل رسول .

والغاية من كل ذلك ، هي أن القرآن يهدف أن يكشف للانسانية جمعاء ، أن اختلاف الاسماء المطلقة على وحي الله المنزل على الرسل، لايدخل في صميم الوحي ؛ لذلك لا يوجب ، تغايرُ الاسماء ، تغايراً بين البشر ، اذ هي طارئة ، وقد أصبحت أعلاماً بالغلبة ، فاتخاذها وسيلة للخصومات والاختلاف، هو اعتداء على سمو الوحي الآلهي وجلال قيمه، وشرف مدلوله

(١) آل عمران ٦٧

الذاتي العام الشامل .

ولما كان الوحي الالآهي في جميع الأديان، ليس فيه سوى الاستسلام لله، والدعوة اليه، حافظ خاتم الوحي على هذا الاسم الجامع !! وهنا يقف العلم خاشعا حيال قوله تعالى « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلماً » مدركا ما انطوى عليه من معرفة عميقة متغلغلة في أعماق التاريخ، لم يفطن لها العلم الا حديثاً .

وانا لو أردنا أن نبسط كل النصوص التي جاءت في العهدين، حول مدلول الاسلام، في تمجيد الله وتنزيهه ووحدانيته، وتوجيه القلب والضمير والعقل الى الايمان به، لاستغرق ذلك منا سفراً كاملا، ولكن أرجأنا الافاضة في ذلك الى فرصة اخرى .

والآن ندع رسول الله سيدنا موسى، عليه الصلاة والسلام، يتلو على شعبه هذه الكلمات الوضاءة بنور السماء، راجين قراءنا أن يصيخوا اليه منيبين خاشعين : « يا اسرائيل، ماذا يطلب منك الرب الهك ... تعبده من كل قلبك وكل نفسك .. للرب الآهك السموات وسماءُ السماوات، والارض وكل ما فيها ... هو اله الآلهة، ورب الارباب، الاله العظيم الجبار، اياه تعبد، وباسمه تحلف (١)، فخاف الشعب الرب وآمنوا به وبعبده موسى » (٢) .

وهل الاسلام غير هذه الكلمات التي تكلم بها سيدنا موسى ودعا قومه

(١) تث ١٠

(٢) خروج ١٤ — ٣١

اليها ؟ واذا نحن أنعمنا أنظارنا في كل كلمات سيدنا المسيح الآتية ، اتضحت لنا معالم الاسلام جلية وضاءة في ثوبها السماوي المجيد، اذ يقول للمؤمنين، الذين أسلموا قلوبهم وضمائرهم وجوارحهم، الى الايمان بخالق السموات والارض، « للرب الهك تسجد ، واياه وحده تعبد » (١) « الحق أقول لكم ان من يسمع كلامي ، ويؤمن بالذي أرسلني ، فله حياة أبدية » (٢) « تحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ، ومن كل قدرتك ومن كل فكرك » (٣).

وهذا هو عين ما جاء به خاتم الرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ودعا اليه بانابة واخلاص ، وتمهد من الله بالرعاية والحفظ « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، ان الله لا يهدي القوم الكافرين » (٤).

سبحانك اللهم ، هذا وحيك المقدس يجمعنا ، تحت لواء واحد وسماء واحدة مشمة برفيف الأقداس ، فارضاً علينا التسامح والمحبة العامة ، مع إخواننا الذين لم يتشرفوا بعد ، بالانضواء الى هالة الأديان السماوية الصافية، قائلين لهم أني وجدناهم : ـ وإن كانوا وثنيين أو مشركين ـ سلام سلام ،

---

(١) مت ٤ — ١٠

(٢) يو٥ — ٢٤

(٣) لو ١٠ — ٢٧

(٤) المائدة ٧٠ قال الفيلسوف الفرنسي ديكارت : « إن حفظ صاحب الرسالة من مؤامرات مشركي العرب ، على وفرتها ، معجزة القرآن في تعهده القاطع .

ذلك لأنك رب العالمين ، وراحم الخلق أجمعين ، يأمرنا بالصفح والمغفرة وإعلان السلام ، في الدنيا قبل الآخرة ، حتى للوثنيين والمشركين ، الذين لم يؤمنوا برسلك ، ويذعنوا لوحيك ، ليكون أمرك هذا ذكرى لهم تدفعهم الى اعتناق تعاليمك، والاهتداء بها وليكون وسيلة لادراك أن شريعتك فوق شرائع البشر ، وأحقادها وحواجزها ، وليكون أخيراً برداً وسلاماً وطمأنينة لنفوسهم ، بأن رحمتك عامة ، تشمل الأبرار والاشرار : « وقيله يا رب ، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . فاصفح عنهم وقل سلام ، فسوف يعلمون » (١) .

هذا هو الاسلام كما يبدو مشرقاً وضاءً ، في محراب الوحي الإلهي ، منذ أقدم الأزمان ، وهذا هو الاسم السماوي الكريم ، الذي اختاره الله لأنبيائه ورسله وأتباعهم أيضاً ، وهذه هي تعاليمه السلمية الكريمة، الذاخرة بالمودة والصفح والتسامح تومىء الى ذلك ، وقد فطن الى جلال هذا الاسم الشامل ، وكبير قيمه الجامعة ، شباب الباكستان المثقف المؤمن، مدركين أن كل اسم سواه ، يجعل بين الانسان وأخيه الانسان حواجز وتخوماً ، وأغواراً وأبعاداً ، تحول دون التفاهم والحب العام، ودون الثقة والاخلاص الذي جاء به أولوا العزم من الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم .

لذلك طرحوا كل التسميات التي جاءت بها الأرض بوحولها وضيق حدودها ، وتضارب مآتيها ، واتخذوه وحده اسماً لهم، وقد انطلق المصلح الاجتماعي الكبير العلامة السيد محمد حسن الأعظمي ، يدعو الناس اليه

---

(١) الزخرف ٩٨

ويذكرم بمنافعه العامة ، وخيراته الكثيرة وبركاته ، وقد أكرمنا الله بالاجتماع اليه والتعرف به (١) والافادة من روحه الاسلامية الانسانية الاجتماعية المجيدة .

يا لله ما أجله !! فقد دوى صوته الرنان في شرقنا الأدنى ، كما دوى من قبل في الشرق الأقصى ، وقد تأكد لنا من اجتماع الناس حواليه ، وتأييدهم لدعوته واحتفائهم بروحه الانسانية الجامعة ، أن الانسانية تنتظر نفحة السماء ، وأنها ظمآى الى من يسكب في روحها ، آي الوحي وسلسبيل هداه ، وأنها حسرى لما تلاقي من أرزاء وأحقاد ، وحروب وخصومات . في وحول المادة الطامسة المدمرة .

ولا عجب أن ينهض شباب الباكستان ؛ وزعماؤه ورجال العلم فيه ، الى الغاء كل تسمية سوى اسم «مسلمين» فهم بذلك رجعوا الى روح السلف الصالح الذين عاشوا وانتقلوا الى الله ، وهم لا يعرفون سواه ، ولا يتنادون الا به ، ولا يتعرفون الى غيره .

نعم كانوا يعلمون أن كل تسمية سواه ، لا تغير من جلاله ولا تحتل مكانه ، إن هي الا أسماء أحزاب تعاقبت على الحكم لها سماتها الخاصة المشتقة من اسماء رجالها أو اعمالهم .

وكما نقول نحن في هذا العصر : وفديين ودستوريين وكتلويين ، كانوا يقولون : أمويين وعباسيين وعلويين ... ولا يفوتنا في هذا الموقف

(١) في ٢٦ رجب ١٣٦٩ الموافق ١٣ نوار ١٩٥٠ حيث القى محاضرته في كلية فاروق الاول الشرعية .

الاصلاحي الشامي أن ننوه بأمجاد ابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب الذين فطنوا الى جلال ذلك من قبل ، ونادوا بالعودة الى العمل بما كان عليه السلف الصالح ـ رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ـ فكانوا هم حاملي شعلة النهضة الاسلامية الأولى المقدسة كما حملها من بعد آل كاشف الغطاء وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والجزائري، وعبد الكريم الزنجاني ، وبهجة البيطار ، ومأمون الشناوي، ومحمود الغمراوي ، وعبد الرحمن حسن ، وعبد الوهاب خلاف، وعبد المجيد سليم ، ومحمود شلتوت ، ومحمد عرفة ، ومحمد الخضر حسين، وعبد الجليل عيسى، ومحمد حسنين مخلوف، وعلي الخفيف، وفريد وجدي ، وعبدالله حسن ، ومحمد بن مانع ، وعبد الله بن مزاحم ، ومحمد الخيال ، وعبد الله ابن صالح ، وابو القاسم القاشاني ، وأحمد رضا ، وسليمان ظاهر ، وأحمد عارف الزين ، وأحمد الصديق وابن زبارة .

وكم كنا نود أن نلبس كل شخصيات هؤلاء السادة الأعلام ، القابها الدنيوية الزائلة ، ومظاهر زخرف الحياة الخداع ، فوجدنا ذلك لا يتناسب مع مقاماتهم العلمية الفذة ، وسمو معارفهم . وسامي خدماتهم ، وروائع مؤلفاتهم ، فذكرناهم بأسمائهم المجردة .

وكم من شرف أن ننشد في هذا المقام ، ما انشده الأبوصيري ، في صاحب الرسالة ، ننشده فخورين ، لانه صلى الله عليه وآله وسلم ، أسوتهم الجامعة ، وقدوتهم المثلى ، في جليل أعمالهم وكبير إخلاصهم .

«كأنه وهو فرد من جلالته ... في عسكر حين تلقاه وفي حشم»

أجل ، حسبهم إكبارا وخلودا ، أن أنفسهم مبعث معارفهم وأمجادهم لا الوظائف والثروات ، فهناك من هم أكثر مالا وأعز نفرا ، وأبسط سلطانا وأعظم جاها وأضخم وظيفة ، ولكنهم كفقاقيع الماء ، تبدو كنثار الفضة الوهاج ، على أنها وشيكة الزوال خداعة المنظر جوفاء ، من أجل ذلك تعمدنا إهمالهم ، لأن الاهمال مصيرهم في عالم التاريخ الخالد ، تلك سنّة بقاء الأصلح ، التي فرضها الله في كل شيء « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » (١) . ولا نجهل أن هناك كثيراً من الرجال الخالدين ، سوي من ذكرنا ، تعرفنا الى بعضهم بواسطة مؤلفاتهم وإخلاصهم وجهادهم ، ولكن لم يتيسر لنا الكتابة عنهم ، لان مختصرنا لا يستوعب الاستقراء ؛ فاكتفينا بالتلميح عن التصريح .

ويسعدنا أن يعلم قراؤنا ، أن المتبادر من كلمة هدي في القرآن ، عين ما علموه من معنى الاسلام . بالطبع علموا أن الاسلام حقيقة كل وحي ، إذاً فهدي الله عين تلك الحقيقة ، وهدف القرآن المجيد من كل ذلك ، هو إيقاظ الفكر الانساني ، الذي ضاقت به المعرفة ، وطمست فيه بصيرة الروح ، فحصر هدى الله في ما أنزل على رسول بعينه ، مهملا سواه من الرسل ، كجماعة النجرانيين النصاري التي حصرته في ما أوحي الى سيدنا المسيح لانها لم تفهمه وكجماعة اليهود اليثربيين التي حصرته في ما أنزل الى سيدنا موسى ، اذ قالوا : « كونوا هوداً أو نصاري تهتدوا » فجاء في توجيههما الى واقع المعرفة « قل

---

(١) الرعد ١٧

بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين»(١) ومفهوم أن إبراهيم والد جمهور الانبياء بعد نوح، وملته هي ملة الجميع .

وكم نجد من إعجاز في إطلاق هذه الآية،لكل ما وضعوا حول معنى الاهتداء الرحب بالوحي الآلهي،من أغلال وتقاليد ؛ تحول دون الفكر، وكنه واقع المعرفة، على وجهها الاكمل، هذه الآية المشتملة على أسلوب الاكتفاء والتداخل . اذ مفهوم أن أولئك النجرانيين قالوا« كونوا نصارى تهتدوا » لأنهم هم كذلك، وأن أولئك اليثربيين قالوا : « كونوا يهوداً تهتدوا » لأنهم هم كذلك، وهنا التداخل . ومفهوم أيضاً من هذه الآية المعجزة، أن أهل كل وحي يقولون مثل قولهم، وهذا هو الاكتفاء المنطوي فيها . ويتضح بعد ذلك لقرائنا أن مراد قوله تعالى « قل بل ملة إبراهيم حنيفا » هو كشف تلك الدائرةالواسعةالتي ضمت كل دوائر الوحي، اذ ملة ابراهيم، هي عين معنى الاسلام في الاديان السماوية كلها ،والاهتداء بها في حقيقة الامر، اهتداء بكل وحي بعينه، اذ هي هو ، وكشفها اطلاق وسيع لحرية العقل والمعرفة والبحث والواقع .

والحقيقة التي كشفت للعقل الانساني هنا،هي أن الهداية متوفرة في كل وحي أوحاه الله، حتى من قبل ابراهيم، وكل وحي هو الدين، والدين واحد، وهو الذي دعا له الرسل جميعا، ولم يستكبر عليه الا المشركون والوثنيون، الذين يحملون أثقال عبادة الآباء والاجداد وتقاليدهم، ويعسر عليهم أن يتخلصوا من جاذبيتها،وسحر ايحائها وملابساتهاوفروضها .

---

(١) البقرة ١٣٥

ويجد قراؤنا بسط هذه الحقيقة التي هدتنا اليها الآية التي ذكرنا ، في قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا اليك، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبُرَ على المشركين ماتدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب » (١) .

وأخيراً ، ندرك كم يكون اثمنا على جلال الوحي الآلهي ، وسعة آفاقه المترامية ، حين نصغر به ونوثقه في دائرة وحي رسول بعينه ، زاعمين أنها هي كل شيء جاء من السماء ، وزعمنا هذا في الواقع ونفس الامر ، لايزيد على قولنا : إن نهاية حدود الفضاء هي لدى نهاية أبصارنا .

القرآن في اوربة وامريكا

والآن نجد من الواجب أن نعلن لقرائنا ، أنه لم يكن لنا في بحث « الاسلام » ، سوى تنسيق الافكار وتوجيهها وتركيزها بأدلتها اليقينة ، القطعية . اذ أسهب فيه كثير من علماء الهند ، المتطوعين للدعوة الى الله في أوربة وأمريكا . والذي حفزهم الى دراسته والكتابة عنه مسهبين مما سمعوه يجري على ألسنة الكثيرين هناك من أمثال هذه الكلمات ،الدالة على أن معرفة حقيقة واقع الاسلام لا تزال مجهولة : « الاسلام دائرة ضيقة تجعل سعادة العالم الثاني خاصة بمعتنقيه .الاسلام يبيح للمسلم أن يقتل كل من وجدة غير مسلم . الاسلام جاء منكراً لجميع أديان البشر .الاسلام خطر على أوربة

(١) الشورى ١٣

لأنه يمنع سير الحضارة التقدمي الحر المنطلق. الاسلام رجعي قضي على كل حضارات الشرق، ومزق جامعته، فلو أدخل أوربة وأمريكا لكان هذا أثره فيهما. الاسلام لا يدعوا الى الثقة الانسانية العامة، إذ من تعاليمه «ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ...» (١) وسوى ذلك من الكلمات التي يتلقونها من صغار دارسي الاسلام في الشرق والغرب، أو من أفواه العامة والرعاع فيهما، أو من كتب الطفيليات المحدودة، الذاخرة بالآراء الغريبة الشاذة، والخرافات الرعناء ذات التهاويل، التي لا صلة لها بالقرآن في قليل أو كثير.

نعم رجع أولئك الدعاة الباكستانيون، المتطوعون العباقرة، الى القرآن المجيد، فاستخرجوا الكثير الكثير من كنوزه القيّمة، وكتبوها باللغة الانجليزية وسواها، في مؤلفاتهم ورسائلهم وجرائدهم ومجلاتهم، التي يذيعونها في أوربة وأمريكا، وبسطوا حول تلك الكلمات الهدامة الطائشة، بحوثاً قيمة وفصولا من المعرفة ثمينة، أنفقوا في سبيلها الجهود الجبارة، وبذلوا الاموال الطائلة وسهروا الليالي الطوال بل الأشهر بل الأعوام، (٢)

(١) هذا مجمل أقوالهم التي تصوّر سطحية معرفتهم بالاسلام، على أن نظرة واحدة في القرآن المجيد، تمحو من النفس كل تلك الاشباح السوداء المخيفة، التي رسمت باسم تعاليمه في أنفسهم، وكيف يبيح القرآن قتل النفس وهو الذي يقول « ومن قتل نفساً بغير نفس او فساد في الارض، فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » بل كيف يحرم ثقة الانسان باخيه وهو الذي نقد قول اليهود بعضهم لبعض «ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم» راجع المائدة ٣٢ وآل عمران ٧١

(٢) إن أمجد كاتب ترجم اهداف القرآن الكريم، بالمقدار الذي وصل الى إدراكه البشر، مولانا الفيلسوف محمد علي الهندي، إذ قضى في ترجمة تلك الاهداف سبع سنوات، وهو يعتقد أنه لو سلخ سبعين عاما لاحتاج الى أضعافها.

وهم لا يرجون من وراء ذلك سوى إظهار واقع المعرفة ، وازاحة ظلمات الجهل ، وسوى اذاعة مثل القرآن العليا الخافقة بنبضات الحب والاخلاص للانسانية جمعاء ، بل سوى رجاء مرضاة الله ونيل الزلفى لديه . والاقتداء برسله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم .

ونحن نعذر الاجيال الحديثة في أوربة وأمريكا وطالبي معرفة الاديان العالمية بدراستهم ،لانهم نظروا الى الاسلام من أول يوم سمعوا به ،بالكراهية والمقت والاستخفاف ، اذ تخيلوه ـ من قبل أن يعرفوه لما أذيع حوله من خرافات وجهل ومطاعن ـ أنه يحمل اليهم الوثنيات الشرقية والنظريات السقيمة الرجعية ، والأغلال وكراهية العلم والتقدم الحضاري ، كما نظر آباؤهم الاقدمون الى المسيحية من قبله ، اذا ما كاد يسمع بها الأباطرة حتى استطاروا هلعاً ، وظنوها تسوق الشرق ليحتل الغرب ويفعمه بالظلمات والجهل ، فتنكروا لها ، ولم يدرسوا مثلها العليا المقدسة ، ويتعرفوا الى جمالها الروحي السامي ، بل كانوا ينزلون ضرباتهم الجبارة القاسية على معتنقيها ، ويهدمون عليهم مغاورهم وكهوفهم ، طوال ثلاثة قرون ، ولولا أن الله الهم الملكة « هيلانة » ، أن تتلطف في إفهام حقيقة المسيحية لولدها « قسطنطين » ، لما تيسر اعتناق الاوربيين لها رسمياً في ذلك القرن (١).

ويشهد الله أننا لا نعتب على الذين لم يتيسر لهم أن يلموا بعد بواقع المعرفة الاسلامية ، كما هي في نصوص الوحي القطعية العلمية ، ـ القرآن المجيد ـ على كثرة ما يقرءون من كتب ومؤلفات تذخر بها مكتباتهم ، إذ

(١) الرابع بعد الميلاد راجع كتابنا الثاني « المرأة في السياسة والاجتماع ».

ماذا يصنعون اذا كانت هاتيك المؤلفات جاءت« ككشكول العاملي»فيها ـ من غير قصد ـ ما هب ودب ، مما يسدل على أهداف القرآن غيوماً كثيفة وظلمات سحيقة ، تواريها عن أنظارهم . وتظهرها في أثواب الأساطير . وهم لم يخترعوا بعد مجاهر علميـة تكشف واقـع غذائهـم الفكري لدى تناوله . كما اخترعـوا مجـاهر تكشف لهـم واقـع غذائهم المادي !! .

ونحن لا نجهل أنهم لا يطلبون في مايقرءون من مؤلفات كتبت عن الاسلام . سوى المعرفة .وان أفضت بهم قراءتهم الى حافة مجهول تائه.على أن المسئولية لا تقع عليهم بالذات . وما ذنبهم في هذا الشأن ؟ وانما تقع على الشرقيين بصورة عامـة . أفراداً وجماعات . من المسلمين وسواهم . لأنهم قادرون على افهامهم الحقيقة.ولكنهم لم يفعلوا. كسلا وشحا واتكالا وايثارا لدعة العيش وراحة البال . وهذه حقيقة لم نتقدم بها من تقديرنا . وانما تبيناها في شكوى كبار ساسة الغرب وعبقريي علمائه.الذين نهضوا بالمعرفة الانسانية وما زالوا ينهضون ليتعرفوا الى كنه الواقع في كل شيء .

هذا السياسي الكبير السنيور « غبريال كيزو » : صاحب مجلة « كل شي » الايطالية . ينشر في عدد آذار عام ستة وثلاثين وتسعمائة بعد الالف . للعالم العبقري المستشرق « ليبرتيني »حين بلغه اهتمام مجلس الأزهر الأعلى. بترجمة القرآن المجيد الى اللغات الأجنبية . ترجمة علمية صحيحة.تبين أهدافه كما هي في منابعها الأولى . ينشر له كلمته الآتية : « أرى أبحاثي المتعلقة بالدين الاسلامي والمدنية الاسلامية . التي قدمتها للعالم الاوربي حتى اليوم . سوف

تضؤل قيمتها العلمية . بعدما تنكشف امامي أهداف القرآن مترجمة ترجمة صحيحة . فأفهم منها خمسة أضعاف ما فهمته اليوم . وسوف تنقلب حقائق واقع الاسلام في أوربة وأمريكا رأساً على عقب. ويستقبل الاسلام حينئذ فهما جديداً عاماً من المحافل العلمية كافة .

نعم أنا درست اللغة العربية دراسة كافية . بل زدت في دراستها على الكثيرين من أبنائها . اذ درستها من النواحي العلمية والاشتقاقية . ومع ذلك كلما سبرت غور أهداف القرآن ورموزه السامية . وغاياته الفلسفية العالية . وقفت حائراً لا أفقه شيئاً . اذ أشعر أنني تجاه تعاليم خالدة . وحكم لاهوتية بليغة وتشريع محكم عجيب وعدل أخاذ .

والحق أنني لم أعد أعرف نفسي . بعد طول الدراسة والنظر . اذا كنت لا أزال مصراً على أن القرآن ليس وحيا من الله . أم أن تعاليمه السامية وأشعة نوره المنبثقة من وراء الأكمة . التي يرقد لدى سفحها محمد العظيم . « صلى الله عليه وآله وسلم » والتي استولت على كل مشاعري وأضاءت الظلمة التائهة في نفسي . قد حولتني عن اصراري وجعلتني أعترف بأنها ليست من صنع انسان . واذا صح بأني ما زلت مصراً منكرا . فيكون ذلك مني جلداً ومكابرة . وحينئذ أعترف بأني ما برحت جاهلا حقيقة الاسلام بمعناه السامي الفسيح . على أن العرب لم يفهموا القرآن كما يجب أن يفهم . ما خلا فئة منهم ظهرت في ابان نزوله أو بعده بقليل .

وإني أبارك عمل الأزهر المجيد اذا وفق حقاً في ترجمة القرآن حاملا للانسانية مثله العليا وأهدافه الخيرة السامية . وكل رجائي اليهم . أن يسارعوا

في إنجاز هذا المشروع الاصلاحي المجيد ؛ قبل أن تطرأ عليه عوامل المد والجزر ، فيتلاشى من أساسه شأن أكثر الاعمال في الشرق ».

هذه خلاصة حديث المستشرق « ليبرتيني » ، وهناك كتابات لكثير من المستشرقين ورجال العلم في الغرب ، تهدف الى كشف كنه وحدة الأديان العالمية ، ونحمد الله أنا سرنا على غرارهم واقتبسنا من بحوثهم ، كما شاركنا في البحث بالمقدار الذي أتاحته لنا ظروفنا الضيقة.

نعم يوجد بعض المستشرقين كالأب لامنس ورينان وهانوتو وكارل بروكلن ... يحسبون أنهم يخرجون عن عقيدتهم الدينية إذا اعترفوا ، — بعد توفر الأدلة العلمية الصحيحة لديهم ، — بأن القرآن المجيد ، وحي من الله كالمهدين ، وقد ظل هذا الرأي يسود الأوساط هناك ، حتى جاء اللورد هدلي وكويليام وفلهاوزن وبراون وتولستوي وتوماس كارليل ،...ودرسوا هذه المسئلة بإنعام نظر في الكتب الثلاث ، مُحكمين العلم والمنطق والواقع ، بل محكمين الوحي والله والضمير . فاذا هم يكتشفون ان لا خروج عن عقيدتهم بتاتا لدى اعترافهم بأن القرآن المجيد وحي من الله ، لأنهم تبينوا أن جوهره هو عين ما جاء به موسى والمسيح من قبل ، و كل ما فيه من زيادة هو اشتماله على أصول التشريع وقواعده التي أشار اليها « ليبرتيني » ، عالمين أن الايمان بما جاء به المسيح ركن في الاسلام ، يضاعف الأجر والمثوبة ، إذ يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، « من آمن بي

وآمن بدينه (١) فله أجران » . ورأيهم هذا له دلائله في القرآن إذ نصوصه التي تفرض الايمان بالسيح ووحيه ،وأنه روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطاهرة ، والتي تفرض قداسة تلاميذه وإخلاصهم كثيرة جداً . وان المسلم لا يكون مسلماً إلا إذا آمن بكل ذلك .

على أن العهدين ، القديم والجديد ، لا يمنعان الايمان بما أوحاه الله على سيدنا محمد في القرآن المجيد ، إذ ثمار الوحي لا تجهل ، كما قال سيدنا المسيح « من ثمارهم تعرفونهم » ، وما قال ذلك إلا لأن هناك وحياً آتياً من الله ، يحتاج الى قاعدة يعرف بها ، ليميز العقل الحق من الباطل ، والصحيح من الكاذب كما أنه فرض دراسة الوحي وفهمه إن كان من الله أم لا ، وقد جاء بالعهدين ، الايمان بالوحي والنبوة والرسالة ونزول ملاك الرب بالوحي،على أمثال إرميا وملاخي وحزقيال وناحوم وصفنيا وميخا وحبقوق وناثان وأخيا وصموئيل وشمشون ومريم « أخت موسى » ودبورة وخلدة وحنة... كما كان لغير العبرانيين كأيوب الأدومي وبلعام الوثني الآرامي العراف . وهؤلاء لا نعد نبواتهم ولا ما أوحي اليهم شيئاً ، اذا قورنت بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وما أوحي اليه ، وكل ذلك موجود بين ايدينا .

وقد رأى الكاتب اللبناني « الياس أبو غنام » كثيراً أن نعتقد بأن الوحي الالهي تناول حتى حمارة بلعام ، فجرت كلماته على لسانها، ولا نعتقد أنه تناول القرآن المجيد بمعارفه السامية ومعجزاته الخالدة التي هزت العلم

(١) إطلاق الدين في الاسلام يقصد به وحي الله للانبياء .

والعلماء وما زالت تهز ، هذا كثير على العلم والعقل والايمان بالله والضمير والانسانية . أجل كثير !!

نشوء الفروع

الاسلام مؤسسة ثقافية انسانية روحية سامية ، التف الناس حولها مذ انبثاق نورها ، ودانوا بها واتخذوا مثلها العليا دستورا لهم في ما يأخذون أو يدعون ، وعاشوا على اختلاف أجناسهم ولغاتهم — لمّا اعتنقوا هاتيك المثل — ، اخوة ينعمون تحت ظلالها ما ينعمون ، ويرغدون بطيب عيشها ما يرغدون . وكان من أعظم قواعد هاتيك المثل التي عني بتوضيحها وتدعيمها ، وتركيزها في أنفس المؤمنين ، المؤسس الأول صلى الله عليه وآله وسلم ، اطلاق حرية الفكر وتحطيم الأغلال التي كانت ترهق الانسانية ، وتلقي السدود بين يديها ومن خلفها ، أي اطلاق حرية الاجتهاد والفهم في ما أنزل الله من وحي ، وما بلغهم اياه من تعاليم ، ليعيشوا اخوة احراراً ، لا يرهقهم الكبت ، ولا تحط من قيم العلم والتفكير الحر القيود ، ولم يكن اطلاق حرية الاجتهاد خاصاً بفئة دون فئة ، لم يكن للعرب دون العجم . ولا لقريش دون سواها من قبائل العرب ، ولا للأنصار دون المهاجرين ، ولا لآل البيت النبوي دون سواهم من عامة المؤمنين ، بل جعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لكل مؤمن توفرت فيه مؤهلات الاجتهاد وقوامه وبواعثه . اذ كان يعلمه الجميع ، ويقرهم عليه ، ويفهمهم أنه مثوبة كبيرة ، ولو أخطأ المجتهد ، ليحثهم عليه ويدفعهم الى ايثاره ، ومن

هنا عرف المسلمون منذ فجر الاسلام أن الاجتهاد فريضة اسلامية وقاعدة أساسية.

هذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين وفد داعيا الى اليمن، أحدث انقلابا خطيراً ورجة عنيفة في العقول، ودخل الناس على يده في الدين أفواجاً، لما رأوا من سمو أخلاقه وسعة علمه، وعدل قضائه الفصل، واجتهاده المحكم الموفق.

حفر قوم زُبية — وهي خندق صغير يغطى بالجريد — ليصطادوا بها الآساد، فازدحم الناس حولها ازدحاماً شديداً ليشاهدوا الأسد العظيم الذي وُفقت لاصطياده، وتدافعوا بالمناكب، حتى هوى أحدهم في أعماقها، ولكنه امسك بثوب الذي خلفه، وهكذا فعل الثالث بمن خلفه فهلك الأربعة فيها، ورفعت القضية الى سيدنا الامام علي ليصدر فيها الحكم الشرعي.

أدرك أمير المؤمنين أن الأول هو المغامر، في موطن تعد فيه المغامرة تطفلا، فحكم له بربع الدية، ولما كان الثاني قريباً منه، جعل له نصفها، ولما كان الثالث أبعد حكم له بالثلثين، ولم يعط الدية الكاملة الا للرابع الذي كان بعيداً، وفرض دفع ديات الهلكى على جميع الحاضرين المزدحمين، اذ هم العلة المباشرة في وقوع الحادث، لتدافعهم وتكاثفهم، وقد رفع أمر هذا الاجتهاد الموفق الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاعجب به جداً، وأقر أمير المؤمنين علياً على ملاحظاته الشرعية الدقيقة وتقديراته المحكمة.

---

(١) سنعرض تفصيلا في جملة التدريبات الاجتهادية التي عرضت على رسول الله وأقرها لاصحابه في باب « نواة الاجتهاد في الاسلام » في الكتاب الثاني.

وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وجد أن الله يذكرنا في آياته بالأنبياء صلوات الله عليهم ومواطنهم وجهادهم ، وما كان منهم ، للعظة والذكرى والاقتداء ، فرأى مجتهداً لو أن رسول الله ، اتخذ مصلى من المكان المعروف بمقام ابراهيم الذي كان يلجأ اليه لدى استراحته من عناء تشييد البيت الحرام ليحصل للمصلي ذكريات الجهاد والمشاق التي تحملها ابو الأنبياء سيدنا ابراهيم ، فاستراح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الى رأي عمر ، وانتظر الوحي ، فاذا هو يتلو « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » (١) .

ولعمر نظريات اجتهادية موفقة جمعها كُتّاب السير وعني بشرحها وتوجيهها الفقهاء ، وحسبنا أن نشير الى اجتهاده في منع قطع يد المختلس من بيت المال ، حيث نهى سعد بن أبي وقاص والي الكوفة ، أن يقطع يد السارق ، حين طلب اليه ذلك . واجتهاده هذا مبني على أن المال مال الأمة والمختلس من أفرادها له حصة في أصل المال ، وهذه شبهة تدرأ الحد ، اذ رأى عمر رسول الله لم يسترح ليلة أن بقي تحت وسادته درهم من مال الصدقة لم يجد من يأخذه ، فكان يقوم ويقعد ويصلي ويضرع حتى أن عائشة خالت أن هناك أمراً فلما سألته متعجبة أشار الى ذلك الدرهم . هذا هذا . خشيت أن القى الله ولما يزل لدي . وكون الشبهة تدرا الحدود لا يمنع عقوبة المختلس وتأديبه ، وإنما هي أسباب قانونية مخففة .

(١) لاجل اجتهادات عمر وموافقاة الوحي له راجع : سيرة عمر لمحمد علي طنطاوي ج ١ ص ٥٣ و ٣٦٥ و ٣٧٣ .

نعم كان الاجتهاد قديما عاما في كل الأفراد إذ كانوا جميعاً عرباً اقحاحاً، يفهمون مآخذ الكلام ومقاصده البعيدة، ورموزه وما يهدف اليه، كما يفهمون المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ والعموم والخصوص، وأسباب النزول، وسوى ذلك مما هو مفروض على كل مجتهد أن يستوعبه، ويمحصه تحقيقاً وتفصيلا. ومن لم يتيسر له معرفة ذلك، فانه لا بد أن يتصل بمن يعرف فيأخذ عنه، كما حدث للفاروق سيدنا عمر رضي الله عنه في إبان خلافته، إذ كان يلجأ في القضايا العويصة التي تعرض على الدولة، الى أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، كتحديد عقوبة شارب الخمر بثمانين جلدة، وتأجيل عقوبة الحامل الى ما بعد الوضع، وقتل الكثيرين مهما بلغوا بالواحد. ومشهورة هي كلمة الفاروق حين بلغه أن طائفة من الناس تآمروا على شخص فقتلوه مجتمعين ليضيعوا دمه، كما أرادت قريش أن تفعل ليلة الهجرة، فأمر باعدامهم جميعاً قائلا «والله لو تآمر عليه أهل صنعاء، واجتمعوا لقتله لقتلتهم جميعاً».

هكذا كان حال الاجتهاد والاهتمام به في عصر الصحابة رضي الله عنهم، فلما كان عصر التابعين، وقد وحد الاسلام عناصر الامم جميعاً في بوتقته الانسانية العليا، بما فرض لها من مثل تنهض بها الى التسامح والحب العام والخير المطلق، عسر أمرُ الاجتهاد إذ استعرب واستعجم كثير من الناس، فرأينا النازحين من بلاد العرب الى فارس والهند والافغان والصين والتركستان يستعجمون، ورأينا النازحين من تلك الشعوب الى المجتمع العربي يستعربون، وقد أصبح الاجتهاد بعد ذلك خاصاً بأفراد من العرب

والعجم،وهذا هو دورالاجتهاد الخاص.اذ عسر استنباط الأحكام،واجتماع شروط الاجتهاد في كل فردمن أفراد المسلمين،وقد ابتدأ هذا الدور في القرن الثاني ، اذ ظهر فيه أشهر أئمة ومجتهدي الفروع الاسلامية،وانتهى في طليعة القرن الرابع ، حيث جمد المسلمون جمودا فظيعاً وندر بينهم من توفرت فيه جميع الامكانيات والشروط والمؤهلات ونود قبل أن نبسط القول في كل الفروع الاسلامية ، سواء كانت للسنة أو للشيعة ، أن نقدم بين يدي ذلك بحثنا عن منشأ الفرعين السنة والشيعة .

السنة والشيعة

ان مدلولات الالفاظ اللغوية،تتطور سمواً وانحطاطاً،بسمو وانحطاط ما يدخلها من معان ، فالمسلمون الأول كانوا يفهمون من هاتين الكلمتين ، مقاصد أولية بسيطة خالية من لظى العصبية،وقتر الكراهية.كانوا يفهمون من الشيعة الأتباع والانصار ، فكل قوم لديهم اجتمعوا على أمر،فهم شيعة ، أي أتباع وأنصار لذلك الأمر ، وأطلقوا على أتباع سيدنا الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه،ورجاله وجنوده وأنصاره شيعة ، كما أطلقوا عليهم « علويين » (١) .

---

(١) وأما تخصيص اسم « علويين » اليوم ببقايا الشيعة الحمدانيين الابطال ، المنتشرين من ضاحية طرابلس الى اسكندرونه فانطاكية فأطنة ، فهو من باب تخصيص العام ، إذ هم شيعة إمامية وقد اهتم بأمرهم الامام الحسن العسكري فأرسل لهم تلميذيه العمري والنميري . راجع تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٣١٩ .

والواقع ان كل مسلم بهذا المعنى اللغوي الصافي ، هو شيعي وعلوي ، اذ لا يوجد مسلم يدين بالرسالة المحمدية . ولا يعد نفسه متشيعاً لكبير أئمة آل البيت النبوي المطهر ، ربيب رسول الله علي بن أبي طالب . كما أن كل قوم سلكوا طريقة خاصة فهم سنة ، إذ السنة في الاصل الطريقة والسيرة ، ولا ريب أن الذين اتبعوا طريقة النبي صلى الله عليه وسلم ، وطريقة أصحابه وآل بيته ، هم سنة وبهذا المعنى لا نجد مسلما واحداً لا يتبع طريقة النبي وآله وأصحابه البررة الاخيار ، ولا يعد نفسه سنياً ، إذاً يتضح لنا ، أن المسلمين جميعاً هم شيعة وهم سنة من حيث اتباع أصول التعاليم الاسلامية ومدلولات الألفاظ .

نعم طرأ على لفظتي ، الشيعة والسنة ، مدلولات اصطلاحية لم تكن من أصل الوضع ، وما زالت تلك المدلولات تتطور وتنمو حتى خصصوا لفظة ، شيعة ، بالمسلمين الذين يتبعون مذاهب آل البيت النبوي المطهر كمذهب سيدنا جعفر الصادق وسيدنا زيد واسماعيل بن جعفر وما تفرع منه (١) وخصصوا لفظة ، سنة ، بالمسلمين الذين يتبعون مذاهب مجتهدي العامة الذين ليسوا من ذرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، كأبي حنيفة والشافعي ومالك وابن حنبل والأوزاعي والظاهري ... ويظهر أن هذا التخصيص أخذ حده وكماله منذ العصر العباسي الثاني .

على أن هذه المدلولات الاصطلاحية ، لن تغير الوضع الأصيل بحال ،

---

(١) توفي اسماعيل بحياة والده جعفر والذي أسس المذهب المنسوب اليه هو ولده محمد .

فالمسلمون هم المسلمون ، سواء اتبعوا إماما من أئمة آل البيت، أو مجتهدا من مجتهدي جمهور المسلمين ، لانهم جميعا يعلمون ، أن الله لم يفرض في وحيه ، اتباع إمام أو مجتهد بعينه، إذ في ذلك حجر لحرية الاجتهاد، وقضاء على الرحمة العامة التي جاء بها الرسل صلوات الله عليهم .

ومن هنا نرى أن جميع أهل الفروع الاسلامية ، لا يعتقدون أن هناك آيات تفرض اتباع أبي حنيفة دون الشافعي ؛ أو جعفر دون زيد ... بل تفسح المجال لاتباع من يطمئن له المسلم، مع الاعتقاد بصحة الفرع الثاني ونجاة أهله . فهذا السيد محسن الأمين كبير مجتهدي الشيعة يقول في كتابه (أعيان الشيعة) ما نصه : « إن إمامة شخص بعينه ليست من أصول الاسلام بالاتفاق من الشيعة وغيرهم » بل يقول « إن من ينكر كل أئمة آل البيت « النبوي المطهر » لا يخرج عن دائرة الاسلام » (١) وهكذا من ينكر امامة الشافعي مثلا ، ويدين بامامة أبي حنيفة أو جعفر أو اسماعيل أو زيد أو الاوزاعي ... لا يكون خارجا على الاسلام ، اذ الاسلام هو اتباع القرآن والأخذ بما صح من كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأقواله وتقريراته ، وما عداه ففروع مذهبية واجتهادات الأئمة ومجتهدين أخيار ، ما أرادوا بتدوين فروعهم — يشهد الله — الا تيسير الأمر والرحمة بالناس ، وهم جميعا — رضوان الله عليهم — لا يرون مذهبهم مذهبا ، ما دامت هناك نصوص قرآنية واحاديث صحيحة ، اذ كل ما يتوخونه في اجتهاداتهم ، أن يصيبوا أهداف الآيات والأحاديث ومقاصد الدين اليقينية

---

(١) راجع اعيان الشيعة ج ١ من ص ٩١ الى ٩٤ .

الاسلامية . ويحققوا اكمال الأسوة برسول الله،فهم في واقع الأمر رحمة لنا ، لكننا نحن بغباوتنا وانقسامنا على أنفسنا ،وتعصبنا لهذا الامام دون ذاك ، ونظرنا الى فرعنا المذهبي أنه الحق وحده ، وأنه هو عين مقصود القرآن وغاية كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وما سواه لا شيء ، أحدثنا هذه الفجوات البعيدة ، والأخاديد المخيفة بين المسلمين جميعاً : بل بيننا وبين أهل الأديان السماوية التي أوحاها الله الى رسله .

على أن المغالاة في العصبية لأقوال امام المذهب واجتهاداته الظنية ، هي خروج على روح الاسلام المتسامح وتعد على النصوص اليقينية التي تبيح الاجتهاد في نطاقها ، فاذا أردنا أن يكون فرعنا المذهبي فوق النصوص اليقينية الثابتة ، فقد خرجنا على القرآن والسنة وفرعنا المذهبي نفسه ، اذ ثبت قطعياً أن كل امام ومجتهد يقول: «اذا وجد الدليل من كتاب الله وسنة رسوله فهو مذهبي » .

وكم من حكمة وايمان في قول الشافعي لأتباعه وتلاميذه: «اذا رأيتموني أصحح الحديث ولا آخذ به،فاعلموا أن عقلي قد ذهب» وما أظرف سخريته لمرور سمعه يصحح حديثا ويرويه عن رسول الله فقال له « أتأخذ به ؟ فأجابه الشافعي ساخراً : أرأيتني غير مسلم ؟؟!!

من هم الرافضة ؟

قد أنهينا بحث نشوء الفرعين الكريمين الاصيلين في الاسلام ، السنة والشيعة ، والآن يتبادر الى أذهان بعض القراء،أن هناك فرعاً ثالثاً أهملناه

وهم الرافضة ، لأن كثيراً من الكاتبين يتخبطون في معرفتهم فلا يدرون الى من ينسبونهم ، غير أن صغار عامة أهل السنة يقولون : هم الشيعة ، وصغار عامة الشيعة يقولون:هم أهل السنة ،والواقع أنهم ليسوا من هؤلاء ولا من هؤلاء .

والى قرائنا نقدم بيان نسبتهم العلمية الصحيحة ، وتاريخ تلك النسبة ونشأتها ، لندلل على أننا لم نهمل شيئا يفرضه البحث.

والذي يهمنا بصورة خاصة أن يفهم قراؤنا أن الرفض هو ترك ما جاء به الوحي ، والرجوع الى أساطير الوثنيات والبعول والطواغيت ، لأننا استقصينا متتبعين آثارهم ،وما انتجوه من أعمال ،فاذا هي ترك لمعالم الوحي .

أجل ان الرفض أي تعاليم الوحي والانصراف الى الأساطير وليس هو خاصاً بالمسلمين ، بل رأينا عدواه تنساب على يد المرضى الملوثين الى أهل كل وحي اوحاه الله. هؤلاء فريق من الاسرائيلين بلغ عددهم ثلاثة آلاف، ما كاد يختفي عن أنظارهم موسى عليه الصلاة والسلام ، الى مناجاة الله عز وجل ، حتى رفضوا ما جاء به ، وانخلعوا عن ايمانهم بالله واتخذوا لأنفسهم عجلا جسدا له خوار ، فعكفوا على عبادته ولم يجد موسى بداً ، لتطهير أنفس المؤمنين الصادقين من عدواهم إلا بابادتهم جميعاً بيدذوي قرابتهم(١) وعلى الرغم من كل ذلك ، ظل الداء كمينا متواريا يظهر حينا ويختفي مما يدل على أن موسى لم يكن قاسيا في حكمه كما قال بعض الناقدين في أوربا

---

(١)سفر الخروج ٣٢ - ٤ و سورة البقرة ٥٤

حيث لستقر الداء أخيرا بصورة رسمية في مدينة السامرة (١) .

هذا القديس بولس يعلن عنهم في مواطن عدة ويسميهم « الاخوان الكذبة » (٢) ولم يكن المسلمون بمنجاة من دخول الاخوان الكذبة بينهم وعملهم على تسميم أوساطهم بأساطيرهم الساذجة الرعناء ، وقد تتبعها العلماء المفكرون،ودونوا لها المؤلفات،وأعلنوها بين الجماهير . ليكونوا في خصامة من عدوامم،وإيقاظاً لمداخلهم الخفية.كالشهرستاني وابن حزم والرازي في تفسيره وأبي منصور عبد القاهر بن محمد البغدادي(٣)في كتابيه«الحرب على ابن حرب» « الفَرْقُ بين الفِرَقِ »وهو خير كتاب أفدنا منه كثيرا من بحوثنا ،ولولاه لما استطعنا أن نكتشف حقيقة الروافض في الاسلام ، وقد ظل هذا المؤلَّف النفيس بل الكنز الفريد ، مدفوناً في مكتبة برلين حوالي تسعة قرون ، ولولا أن هدي الله اليه الاستاذ الكبير محمد بدران المصري فأخرجه بالطبع (٤) لظل دفينا بين ركام تلك المخطوطات .

والواقع أن هذا الكتاب ازاح غيوماً كثيفة سوداء طمست عن معارفنا حقائق الاصول الاسلامية الواحدة في شتى الفروع،غيوماً جعلتنا نتراشق

---

(١) انشقت المملكة اليهودية بوفاة سليمان عام ٩٧٥ ق م فاستقلت نابلس باسم دولة اسرائيل حتى جاء « عمري » سادس ملوكها فبني مدينة السامرة وظلت هذة المملكة مستمسكة بعبادة العجول والبعول مذ تأسيسها ٩٧٥ ق م حتى عام ١٠٩ ق م اي السنة التي هدمها وقضى على عبادة العجول ودك حصونها، يوحنا هركانوس المكابي اليهودي ملك يهوذا ، راجع يوسيفوس ص ٩١ .

(٢) غلاطية ٢ - ٤ .

(٣) المتوفي عام ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م .

(٤) مصر مطبعة المعارف ١٣٢٨ = ١٩١٠ .

بأساطير الرافضة ونتقاذف بطفيلياتهم، ونتدافع بترهاتهم، ونتبادل بأمراضهم الاتهام والتحامل والسباب والشتات، تائهين في ظلماتها عن دراسة بيئاتها الأولى، ومآتيها الينا، والأساليب التي زينت دخولها في قلوبنا حتى أذعنّا اليها، والظروف التي حفت بها وجعلتها تنمو وتترعرع وتتفاقم.

يا رعي الله ما اشاد علامتنا البغدادي من امجاد في مؤلفه الفريد، فلولاه لظلت ظنوننا الخاطئة تتراوح فيما بيننا وبين أهل الفروع الاسلامية، كما كانت تتراوح فيما بيننا وبين أهل الأديان العالمية الكبرى، وكما اكتشفنا في كتابنا « دين إبراهيم » ؛ حقائق تلك الوحدة بما وفر لنا المستشرقون من بحوث ونصوص، وبما نبشوا من دفائن الآثار وطلاسم الخطوط والرقوق، كذلك اكتشفنا وحدة الفروع المذهبية الصحيحة، بما استقصى علامتنا البغدادي من بحوث حول الأساطير التي أدخلها الرافضة بين المسلمين.

وحسبنا أن نلقى الله ونحن نتقدم الى الانسانية بهاتين الوحدتين الروحيتين لنقيم صرح امجادها وجامعتها على هذين الركنين القويين اللذين لا تقام جامعة انسانية ولا أمجاد ولا سلام بدونهما. وكل ما نطلبه من أجر لدى جميع أهل الأديان والحكومات التي تبذل في سبيل الجامعة والأمن والسلام وابقاء الايمان بخالق الوجود، وتعاليم الوحي ملايين الملايين من النفقات، هو أن يذيعوا هذه الأبحاث بين جماهير الأمم ليمتاز هذا العصر باعتناق هدى الوحي على ضوء العلم والمعرفة والتسامح، وأن يفرضوا على رجال العلم والدين وفروعه العمل على تدعيم هذين الركنين بكل امكانياتهم الادبية والمادية. وليس هذا بالعسير او المستحيل وكل مايطلبه منا هو أن ننفض ثوب الخمول والتواكل.

أساطير الرافضة

الآن عرف قراؤنا الرافضة ، والآن أطلوا عليهم ، وهم يتسللون لو اذاً بين معالم الوحي،في فروع الأديان العالمية الكبرى ،ليزرعوا أساطيرهم وموروثاتهم في القلوب الواهنة الضعيفة ،والنفوس الجاهلة الخفيفة.والآن أحسوا معنا بالآلام الفادحة ، التي نزلت على الانسانية من جراء أمراضهم واساطيرهم ، حتى تناكرت القلوب وتنافرت النفوس، وبعُد الناس عن أقداس الوحي الالهي وأضوائه التي تجمعهم إخوة متحابين في صعيد واحد. والآن يجدون أنفسهم تنازعهم الى الالحاح في مبادرة الرجاء الى الدول العظمى ، لتقيم للوحي الالهي منائر وحدته الجامعة التي هدينا اليها .

والذي يعنينا الآن،هو أن يفهم قراؤنا، كيف كان ابتداء ظهور أساطير الأمم القديمة،وتعاليمها في رؤوس الذين دانوا بالاسلام في ثياب جديدة ونحل واسماء جديدة ، شأن ظهورها لدى اهل كل وحي .

وحسبهم أن يعلموا أن أول ظهورها بين المسلمين ، كان على يد «عبد الله بن سبا » اليهودي الحيري اليماني ، الذي أسلم في الصدر الأول ،وكان — كما قال غوستاف لوبون— «دخل الاسلام وهو يحمل في غيوب وراثاته اسرائيليات وأساطير كثيرة،لم يستطع أن يتخلص منها،فظهرت في عقيدته الجديدة ، بأثواب جديدة » .

أجل غالى ابن سبأ في حبه للامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه،حتى زعم نبوته !! ثم تغالى حتى القى عليه رداء الألوهية الذي لا يلتقي مع عقيدة

الوحي الالهي بسبيل ، وبغالاته هذه كان هو وأتباعه أبعد الناس عن الاسلام وتعاليمه ، وعن نفس الامام علي رضوان الله عليه وقد خدع الذين لا يفرقون بين البئر والمئذنة ، بمذهب ابن سبأ هذا وأتباعه ، ولم يفطنوا الى سمومه ومبادئه الملتوية ، وأمراض أساطيره ومنعرجاته التي أخذ يدعوا اليها الجماهير هنا وهناك في العواصم الكبرى ، ويؤلف حولها الأنصار والأتباع حتى أصبحوا كثرة لا يستهان بهم ، تمكنوا أن يندسوا بين المسلمين في كل مكان وأن يلبسوا عليهم ويؤثروا فيهم اكبر التأثير .

وها نحن أولاء نشير الى جملة الأساطير والآراء التقليدية التي ركزها ابن سبأ كمبادىء إسلامية أصيلة في نفوس أتباعه .

(١) نبوة امير المؤمنين علي بن أبي طالب

زعم ابن سبأ واتباعه أن علياً لم يكن صحابياً فحسب ، ولم يكن كبير آل البيت النبوي فحسب ، ولم يكن اعلم الصحابة فحسب ، بل كان نبياً ، ونسبوا الى جبريل الخطأ في التبليغ ، وما زال هؤلاء السبئيون الروافض ينفثون سموم هذه الأسطورة حتي عرفوا « بالمخطئة » وهم الذين يبغضون جبريل ويقول بعضهم لبعض عنه « العنوا صاحب الريش » (١) .

وكراهية جبريل ونسبة الخطأ اليه ، مرض يوناني صابئي برهمي ، يرجع الى المذاهب القديمة التي كانت تنكر الوحي وملائكة وتحقرهما معاء ، وتري الصلة بين الله وعباده منقطعة ، وقد انتقلت هذه العدوى الى بعض اليهود المتصلين باليونان ، إذ غاظهم ملاك الوحي حين شق الأرض لتبتلع

---

(١) الفرق ٢٣٨ .

اثني عشر الفا من اتباع « قوزح » (١) وقد أشار القرآن الى هـذا المرض الأسطوري بقوله تعالى « قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدي وبشري للمؤمنين » (٢) .

ولا ريب أن هذا المرض كان متواريا في غيوب وراثات ابن سبأ ، وقابعاً في أعماق كهوف مجموعته النفسية ، فلما غالي في حب سيدنا الامام علي رضي الله عنه، ظهرت جراثيم هذا المرض بصورة جبارة وانتشرت عدواه في نفوس أتباعه ، وقد اوجع الامام أن يرى هذا الشطط من الناس في معرفته ، ما بين مغالاة في الحب ، ومغالاة في الكراهية ، فقد روى عنه الشريف الرضي في نهج البلاغة قوله « يهلك فيّ إثنان محب مغال وعدو قال » وهو يريد بالمغالين في الحب الروافض ، وبالمغالين في البغض النواصب الذين كفروه ، والآن لم يبق من هؤلاء ولا أولئك شخص واحد ، وقد اشار الى ذلك العلامة المجتهد السيد محسن الأمين (٣) .

(٢) اختفاء أمير المؤمنين علي رضوان الله عليه

قال ابن سبأ حين بلغه موت أمير المؤمنين علي ، إنه لم يمت بل الذي مات شيطان بدا في صورته ، ليحط من قدره لدي الضعفاء ، أما هو فأجل من أن يموت ، انه ارتفع الى السحاب ولا يزال يملأ الآفاق صوته الراعد ليعلن وجوده (٤) . وهذا الداء — داء تأليه الأشخاص والايمان باختفائهم

---

(١) سفر العدد ١٦ - ٣١ .

(٢) البقرة ٩٧

(٣) اعيان الشيعة ١ — ٧ .

(٤) راجع الفرق ٢٢٣ الى ٢٢٦ .

وهلاك الشياطين في صورهم — قـد استطارت أوباؤه في أنفس الأرفاض الذين تأثروا بزعيمهم الأول ابن سبأ ، وهم فرق كثيرة(١) منهم الكيسانية الذين ألهوا محمـداً بن الحنفية ثم ولده أبا هاشم ، ومنهم الخطابية الذين ألهوا جعفراً الصادق ، ومنهم الرزامية والراوندية الذين ألهوا عبد الله بن العباس والسفاح ، وأبا مسلم الخراساني وبنته فاطمة وابا جعفر المنصور وحكيما الخراساني المعروف بالمقنع(٢)، ومنهم السفيانية الذين ألهوا ابامحمد السفياني(٣) وهناك فرق كثيرة تتبـّعهم البغدادي في كتابه، ألهوا ايضا كثيرامن الاشخاص امثال عبد الله بن معاوية بن جعفر بن ابي طالب (٤) وعبيـد الله المهدي . . .

ولا ريب أن قراءنا فهموا أن هؤلاء المؤلهين لا يزالون أحياء ، يقومون بأعمالهم الكبرى في الكون ، شأن الآلهة في عوالم الأساطير ، وأنهم لم يموتوا ، وأما الذين ظهروا للنـاس وحملوهم على نعوشهم ودفنوهم ،

(١) الفرق ١٧ و ٢١٥ و ٢٤٠ .

(٢) ثار بعـد ابي مسلم وقنع وجهـه كي لا يرى نوره الالهي مـن ليس جديرا بذلك .

(٣) الثائر الاموي الساعي لاعادة مجد الامويين في الشام .

(٤) وسبب تأليهه ، ان الجعفريين لم يروه ثقة في ما يروي فأحرج ذلك صدور اتباعه فألهوه . وسيأتي بحث ذلك مستفيضاً في الكتاب الثاني تحت عنوان « ويلات الاحراج » والاحراج يزيد الشفقة والمحبة والتسامح في العقول الكبيرة ، كاحراج قريش للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ويبعث الغيظ والمهاترة وعـدم التوازن في النفوس الصغيرة .

إنما هم الأبالسة الذين يلذ لهم أن يفسدوا مكانة الآلهة في الأرض، ويزعزعوا من عقائد العابدين المتبتلين لهم .

وأساطير الأشخاص العظماء وعدم موتهم واختفاؤهم متغلغلة في مجاهل التاريخ، ولعلها أقدم الأمراض التي طرأت على عقيدة الايمان بخالق الوجود، رأيناها منتشرة في كل الأمم، فاشهر آلهة مصر القديمة، أوزيريس وزوجته إيزيس وولدهما هورس ، وأمون وزوجته موت وولدهما خنس ، وزوس وزوجته هيرا « العاقر المسكينة » ، وتحووتوت وحاتحور ومنت وأمنتي وشو ... وهذا شأنهم في تأليه ملوكهم الذين يقومون بأعمال إنسانية كبيرة ، أمثال (مينا) الذي جمع المملكة ووحدها ، على كثرة آلهتهم واختلافهم فيها ، وأوستريس الذي لم يدع في طول وادي النيل وعرضه ، موضع قدم بغير زراعة ، ولم يفطن الناس الى تأليهه إلا بعد موته بألف وخمسماية عام ، إذ فطن لذلك الملك تحوتمس(١) وهذا شأن قدماء الانكليز الذين كانوا يؤلهون نبلاء كهنتهم « الدرويد » (٢) وأشهر آلهة اليونان، عوليس ومنيوس وفلكان وجوبيتر وفينوس وكوبيت وزفس وهرمس... وامتاز اليونان بأن آلهتهم متواضعون جداً ، إذ يتنازلون أحيانا بالتزاوج والتناسل مع البشر ، ولا ريب أن ذرية هؤلاء الآلهة تنخفض مكانتهم

---

(١) للتوسع بمعرفة سكان مصر الاقدمين راجع كتاب « سواء السبيل في سكان وادي النيل » بيروت المطبعة الاميركية ١٨٨٨ م .

(٢) راجع كتاب « الهلال في أربعين عاماً » مطابع الهلال ١٩٤٢ص ٢٠ .

ويصبحون أنصاف آلهة!! (١) وأشهر آلهة الهند برهمة وفشنو وكريستا وتشتري وبوذا وسيفا وزوجته هافاتي ...، واشهر آلهة فارس القديمة مترا وأهرمان ويزدان ... أما الرومان فلم يحفلوا بتأليه البشر — سوى بعض ملوكهم كأوغسطس وروموليوس — بل اعتمدوا على تأليه الجن والنار، وهم فقراء في هذه الناحيــة، لم نر لهم إلا « شارون » الذي يحول ما بين الأشرار وصعودهم الى السماء.

ولو أخذنا على أنفسنا، ذكر الأشخاص الذين ألهتهم الأمم القديمة، ولا تزال أسماؤهم محفوظة الى اليوم، لبلغوا عشرات الألوف، وحسبنا أن يفهم القراء . أن التأليه الذي انتشر داؤه بين فرق الرافضة، هو داء الأمم القديمة المزمن، الذي يطببه وحي السماء ورسل الله، ويحتملون في سبيل تطبيبه الآلام، حتى إذا أبل الناس وأشرقت في صدورهم أضواء الوحي، وثابوا الى عبادة الله خالق الوجود الحق، عادوا الى الظهور مرة ثانية.

وعلى ضوء هذه الأساطير، فسر موابذة فارس الأقدمون، صعود «مترا» الى السماء وجلوسه الى الملائكة، واشتراكه معهم في تناول الطعام، ثم تأليهه (٢) ولعل أطياف هذه الأسطورة الفارسية؛ أخذت مجاريها في أنفس كهنة العبرانيين، ففسروا رؤية اليسع، الدالة على ارتفاع الياس في المنزلة والمكانة لدى الله، على حساب تلك الأطياف. وفاتهم الرمز في جلال

(١) لليونان آلهة لا تحصى، إذ يطلقون على كل من اشتهر بفن إلهاً لذلك الفن. راجع مختصر التاريخ العام طبع بولاق ١٢٥٤ هـ. وقلدهم الجناحية الروافض

(٢) كتاب « الله » للعقاد ص ٩٧.

الرؤية ؛ إذ المركبة تدل على السرعة ، والنار تدل على القوة في السرعة(١).
والمفهوم من كل ذلك سرعة ارتفاع تلك المكانة واظهارها بصورة تمثيلية .

(٣) تأليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

وهذا مرض دخل على بعض اليهود ، الذين شاهدوا عزيراً (٢) وخدماته الجلى ، ومساعيه في حفظ التوراة بعد العودة من السبي البابلي ، وأول من زعم ألوهيته فيلو اليهودي الاسكندري، وقد دخل عليه مرض تأليه الاشخاص ، من عقائد قدماء المصريين واليونان والهند وفارس ، مستأنسا خطأ ، بنص العهد القديم ، الذي يقول الله فيه لموسى « وأجعلك إلهاً لفرعون ، وهارون أخوك يكون نبيك » (٣) ، كما دخل على ميكالي اليهودي الذي قال بحلول الله في المكان مع التجسد ، ولعله أخذها من رؤية يعقوب المنامية في المصارعة المشهورة (٤) وانتقلت هذه العدوى ، الى

---

(١) راجع ٢ مل ٢ - ١١ .

(٢) هو عزرا عاد من السبي البابلي على رأس أوبعين الفا عام ٥٣٦ ق م بأمر كورش وعمل هو ونحميا على تجديد المسجد الاقصى ، وما زال اسم عزرا محترماً لاصلاحاته الكثيرة ، حتى جاء فيلو المولود عام ٢٠ ق م فنادى بألوهيته محتجاً بأن جملة الاعمال الاصلاحية التي قام بها ، فوق طاقة البشر وقد تفاقمت هذه الفكرة وأيدها أورسطوبول فتسربت الى جزيرة العرب ودخلت الحيرة واليمن ولكنها لم تجد تصديقاً وإذعانا من الجميع فظلت فكرة طائفة ، ثم تركها أهلها وعادوا الى الاصل ومن أجل ذلك لم يلمح لها القرآن إلا مرة واحدة في قوله « وقالت اليهود عزير بن الله » وهو من المجاز المرسل أي إطلاق الكل وارادة البعض . راجع سفري عزرا ونحميا وكتاب « الله » للعقاد ص ١٦٣ وكتابنا الاول من « المرأة في السياسة والاجتماع » وتفسير المنار ١٠ - ٣٢٨ .

(٣) خروج ١٧ - ١ .

(٤) تكوين ٣٢ ، ٢٤ .

البربهارية الأرفاض الذين ظهروا في بغداد بين الحنابلة السنيين. وقد انتشرت أفكار فيلو هذه عند قسم من اليهود ، لا سيما يهود اليمن والحيرة ، الذين منهم ابن سبأ ، فكان يحمل نواة هذا المرض قبل إسلامه ، كتقليد متغلغل في غيوب واراثاته ظهر في مغالاته بحب علي بن ابي طالب ، إذاً فأول من أدخل تأليه الاشخاص بين المسلمين ، هو عبد الله بن سبأ ثم أله أتباعه الأرفاض ، أشخاصاً عديدين ، لأسباب شتى وظروف وتعليلات مختلفة .

وهنا يأخذ قراءنا العجب ، هل الألوهية تورث كالطباع والعادات والأفكار ، أو عدوى تنتقل كالأمراض ؛ أو كرة يتقاذفها البشر ، أو هبة تمنح ، أو تركات تورث ، أو خصائص تظهر في أشخاص دون أشخاص ؟؟ .

والواقع أن مجموع هذه الأسباب أو بعضها ، هي التي دفعت البشر قديما ، الى تأليه الأشخاص ، بل تأليه الحيوان والنبات والجماد ، ويرى بعض مفكري الأوربيين أن ملايين الالهة التي ألهت ، لم تكن في نظر مؤلهيها آلهة بالمعنى الذي جاء به الوحي ، أي أن كل واحد منها هو الله الخالق الحق ، وإنما رأوا ظهور آثار قدرته تعالى في أشخاصهم ، وأعمالهم وأقوالهم وأرواحهم وأنفسهم ، فائقة ممتازة دون سواهم ، فألهوهم من أجل ذلك ، وهم لا يقصدون أبدا من تأليهم ، أن كل واحد هو الله الخالق العظيم ، لا لا ، وإنما يقصدون مظاهر تجلي تلك القدرة الالهية بالذات .

ولما كان العقل البشري القديم ، يعجز عن أن يميز بين مظاهر تجلي القدرة الالهية في خلقه ، وجلال آثارها ، وبين ذاته سبحانه وتعالى التي لا

تشبه شيئا من مخلوقاته المادية أو المنوية ، اختلط عليه الأمر . وقد تبين لنا بعد الدراسة العميقة الناقدة ، أن الناس أدركوا هذه الحقيقة بواسطة الوحي قديما وتقدم العلم حديثا .

أجل أدركوا، فهذا العهد القديم جاء فيه نص أن موسى أرسل ليكون إلها لفرعون أي محلا لظهور آثار قدرة الله الخارقة التي تحل فيه ، ومعلوم بداهة أن موسى لم يقل عن نفسه أنه إله بالمعنى الذي ادعاه فرعون لنفسه ، وقد أشار العهد الجديد الى أن بولس وبرنابا ، حين كانا يبشران وتظهر على أيديهما التأييدات الالهية والمعجزات، كان بعض الناس يقولون عنهما: إلهان(١). وهم لا يقصدون بذلك سوى آثار مظاهر القدرة الالهية المتجلية في أعمالهما لأن بولس وبرنابا، كانا يأمرانهم بترك تأليه أشياء الوجود ، ويدعوانهم الى الايمان بالله الخالق ، والدليل على ذلك أنهم حين آمنوا بدعوتهما هدموا آلهتهم القديمة ، المتخذة من أشياء الكائنات ، إذاً فهم يقصدون — بكل تأكيد — من قولهم : إلهان ، مظاهر القدرة الالهية المتجلية في أعمالهما .

والنتيجة من كل ذلك ، أن لفظة إله كانت تطلق على آثار مظاهر القدرة الالهية ، المتجلية في كل شيء من إنسان وحيوان ونبات وجماد .

وهذا القرآن المجيد يؤيد ذلك الاطلاق ، إذ يذكر أن الذين كانوا يعبدون الأوثان والانصاب كانوا يدعونها آلهة « واتخذوا من دون الله

(١) أعمال الرسل ١٤ — ١١

آلهة » (١) « انطلقوا واصبروا على آلهتكم » (٢) ولم يكونوا يرونها خالقة ورازقة ، « ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله » ، إذاً لم تكن تسميتهم لها بآلهة ، إلا لأن عبادتها في زعمهم تقربهم الى الله «وما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفي » . وهذا هو الاشراك في العبودية،الذي جاء الوحي الالهي لمحاربته والقضاء عليه،ومن هنا قال علماء السلف الصالح: إن مدلول كلمة لا إله الا الله . لا اله معبود بحق الا الله ، لأنه هو الخالق الحق ، وما عداه من الالهة ان هي الا بعض خلقه ، فمساواتها به في العبادة كفر ما بعده كفر ، وهو عين الاشراك .

ولعل الكرامية أرادوا أن يفروا من تأليه أشياء الوجود ، فسقطوا في الذي منه فروا ، اذ قالوا : ليس الله هو الجسم المادي ،بل الجوهر الروحي الحال فية ، وطوله سبعة أشبار بشبر نفسه ، وله كل ما للانسان،من أعضاء سوى الفرج واللحية ، وأنه سيفنى كله الا وجهه (٣) وقد غرب عنهم ان الله ، سبحانه ، هو خالق المادة والروح معا ، وأنه غير خلقه قطعاً ،والا كان — سبحانه وتعالى — بعض خلقه ، وهذا مستحيل عقلا وعلماووحيا.

والواقع أن الامر اختلط عليهم ، كما اختلط على بعض كهنة العهد القديم ، الذين لم يميزوا بين الله الخالق العظيم الذي لا يحيط به شيء ، وبين ملاك الوحي الذي خالوه هو الله بالذات ، فحين ترائى الملاك لحمارة بلعام(٤)

---

(١) يس ٧٣ .

(٢) ص ٦ .

(٣) الفرق ٤٨ و ٥١ و ٣ ٢ و ٢١٦ .

(٤) سفر العدد ٢٢ — ٢٣ .

قالوا : هو الله نفسه ، وقالوا مثل ذلك حين بدا في العليقة (١)،وفي الجنة حين سمع آدم خشة اقدامه (٢) وهذا الاختلاط جاءهم ،من أن الانسان القديم، مذ خمسة وثلاثين قرنا . كان يصعب عليه التميز الدقيق ، بين الصانع — جل وعز — وصنعته ، والا فأين صفات الله الذي لا تحيط به السموات ، ولا سماء السموات ، مهما جلت وعظمت ، من صفات ملاك الوحي ؟ لانه — سبحانه — أجل وأعظم ، كما جاء الوحي على لسان سليمان،عليه السلام، في مناجاته لله « هوذا..السموات وسماء السموات لا تسعك . فكم بالاقل هذا البيت الذي بنيت . ؟ » (٣) على أن النصوص كانت تذكر لعامة الشعب أن الله يسكن في هذا البيت،وأنه سبحانه.ظل هائما في السحاب لا يجد مكانا يأوي اليه . حتى شيد له سليمان هذا البيت فسكن. جاء ذكر ذلك تقريباً لمقول أولئك العامة .

وعلى كل حال . فان أمثال هذا النصوص المتشابهة ـ وإن كثرت ـ تظل في حصانة النصوص المحكمة الأصيلة . التي تبنى عليها حقائق العلم والمعرفة . كالنص السابق . على أن ملاك الوحي . ما هو الا روح من

---

(١) خروج ٣ — ٢ .

(٢) تكوين ٣—٩ راجع بحث آدم ونظرية داروين حوله في كتاب «تستطيع أن لا تمرض » والوحي حين يذكر آدم والارض وسوى ذلك من المخلوقات يكتفي من الناس بالايمان بوجود ذلك ولا يكلفهم معرفة سلسلة تكوينها إذ المعرفة بوضعية التكوين لا يترتب بها إيمان ولا كفر والايمان بالله ، أكبر من أن تهدمه توافه الاشياء ، المناسبات المقدرة حسب العقلية الانسانية .

(٣) امل ٨ — ٢٧ .

الأرواح الخيرة ، خاضع لنواميس الزمان والمكان ككل الأرواح،ومن هنا جاء سوء الفهم الى السبئيين الروافض في تأويل آيات القرآن كما يشتهون فأدخلوا أمراضهم بين المسلمين،مستندين الى بعض آيات متشابهة،وقد غرب عن بالهم أن الله احتاط للأمر بالآيات المحكمة ، احتياطه في كل كتاب سماوي « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ ،فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » (١) وقد تتبعنا كل النصوص التي جاء فيها ذكر ملاك الوحي فلم نجد ما يشير الى أنه هو تعالى الخالق . الله عن ذلك علواً كبيراً.

على أن هؤلاء السبئيين الرافضة أنفسهم ، تيقظت فيهم أخيرا روح العلم والفهم،وأبصروا الأباطيل والخرافات التي حمّلهم إياها الموتى السابقون، فتخلوا عنها حتى لم يبق أحد منهم بين المسلمين اليوم ، وهذا شأن مؤلهي عزرا لم يبق أحد منهم في اليهودية اليوم .

ولعل عقيدة هؤلاء المؤلهين ، أن الله روح تحل في الاشخاص : هي التي حملت أبا حكمان الدمشقي الرافضي ، على القول بأن هذه الروح لا تحل في شخص الا أورثته الجمال والفتنة الخارقة،ولذا كان هو وأتباعه يعبدون كل جميل فاتن (٢) زاعمين حلولها فيه .

(٤) تحريم أكل لحوم الابل

---

(١) آل عمران ٦

(٢) الفرق ٢١٥ .

نص العهد القديم على تحريم لحوم الابل (١) وقد أدخل هذا التحريم بين المسلمين السبئيون الروافض فيما أدخلوا، وثابروا على تحريمه، حتى رجعوا عنه ولم يبق منهم من يحرم وأول من نادى بالتحريم عبد الله بن سبأ .

(٥) الاباحة

رأينا الرافضة الخرمية يجعلون عيداً في كل عام، يستبيحون فيه الاعراض ويتهتكون سكارى مجتمعين ، وهذا مرض قديم دعا اليه الأبيقوريون في اليونان ، وانتقلت عدواه الى فارس ، حيث دعا اليه ماني ثم مزدك ، ثم ظهر بين المسلمين في الخرمية البابكية الروافض ، وجعلوه يوماً واحداً في العام(٢)

(٦) عبادة العجول

هي مرض قديم جدا ، ظهر في مصر حين طلب المصري القديم الى ولده قائلا ، إن أرضك هذه محمولة على قرن ثور، يريد قوة الحرث التي يقوم بها ، ولكن حرف مدلول هذه الكلمة على مرور الزمن ، حتى اعتقد أن كرة الارض يحملها ثور على قرنيه ، ولا بد أنه يشتمل على قوة خارقة، أي ألوهية ، فعبدوه لألوهيته . إذ محال أن يحمل كرة الأرض على قرنيه

---

(١) سفر اللاويين ١١ — ٤ .

(٢) راجع الفرق ٢٥١ و ٢٥٢ . وقد ظهر ماني بمذهبه الاباحي في عهد سابور الاول ٢٤١ — ٢٧٢ م وظل مذاعاً بين اتباعه حتى اضطهدهم بهرام الاول ٣٠٩ — ٣٧٩ ثم جاء مزدك عام ٤٨٤ فجدد نشاطهم وكثر حوله الاتباع حتى أباده قباذ عام ٥٢٣ وظلت اوباء هذا المذهب مستكنة في نفوس الذين اسلموا منهم ثم ظهرت في عصر المأمون على يد بابك الخرمي الرافضي وقد كثر اتباعه واعلنوا الثورة حتى أجهز عليهم المعتصم . راجع تاريخ الطبري ٢ — ٨١ والمختصر لابي الفدا ١ — ٥١ .

الثور العادي ! ثم تسربت الألوهية الى كل عجل ينصبونه للعبادة، معتقدين أن الله يحل فيه، وقد انتقل هذا المرض الى الهند فالاسرائيليين فالمسلمين على يد بيان بن سمعان التميمي الرافضي (١)، وهو رجل مغالط كان يزعم لأتباعه أن الله ذكره في القرآن بقوله « هذا بيان للناس » قال بألوهية أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ثم زعم أنه ورثها منه .

اخطاء

تحدثنا الى قرائنا في البحث السالف عن جانب من الأمراض التقليدية التي نفثها الرافضة بين المسلمين . والآن نقدم اليهم أخطاء الكاتبين في تحرير تلك الأمراض، ومعرفة أربابها ومناطقها الأولى، وكيف خبطوا فيها خبط العشواء، فنسبوها الى غير أهلها، حتى أحرجوا موقف الكثيرين، مما أثار الثائرة وهيج النفوس، وكاد يودي بالوحدة الجامعة، التي يدور عليها قوام الانسانية والتسامح والسلام، والايمان بخالق الوجود .

والحقائق — كما يقولون — تأخذ أبداً الحد الوسط، فلو ترك الناس المشادة من طرفيها المتباعدين، المشادة التي تقصم ظهر الروح الانساني، وتقضي على تسامح الوحي السامي، وتجعل السلام مستحيلا، وطلب واقع المعرفة باطلا، ورجعوا الى ذلك الوسط، طارحين المشادة الجوفاء تحت أقدامهم، لألفوا أنفسهم مغمورين في أضواء المعرفة وحقائق الأشياء، إخوة متحابين . ونحن لا نتهم أولئك الكتاب بالمجافاة للمعرفة، والزيغ

(١) الفرق ٢١٤ .

بها عن أقداسها والاعراض عن محرابها ، لا لا . . . لازيغ لانسان عن واقع المعرفة أبداً . وبالأحرى اذا بدت له جلية سافرة ، ولكن الذي ابتعد بهم عنها ، هو اعتقادهم ، أن المعرفة عين ما كتبوا وألفوا وأذاعوا ونشروا .

ونحن حين نتلطف في ازاحة تلك السدف ، التي تظهر المعرفة في ناحية ، وكتاباتهم في ناحية ، لانريد بتاتا تصغير شأنهم ، ولا الحط من أمجادهم ، فهم كتاب مخلصون بررة ، بذلوا ما وسعته امكانياتهم في نظرنا ، وقد بذلنا نحن أيضاً جهودا وامكانيات ، وسهرنا الليالي الطوال معا ، للتمحيص والتحقيق ، فاهتدينا الى أشياء كثيرة . بيد أننا نعتقد أن رجالا آخرين ، سيجتهدون ويكشفون من الحقائق ، ما نجهلها نحن أيضاً . وهكذا تأخذ سنة بقاء الأصلح ، حظوظها وامكانياتها ، وتسير بالمعرفة الى عين الواقع ، أي تسير الى أن تنتهي بها الى النور ، الى الكمال الى قرص الشمس .

نعم تداول الناس أمراض الرافضة السبئيين . وتناقلوها في كثير من مؤلفاتهم . وتبادلوا الاتهام والصاق نسبتها الى فروعهم . للحط من اقدارها وللتشفي . شأن الانسان الصغير الذي لا يحمل كرامة الانسانية . وا كبار المعرفة وحقيقة الايمان بالله . الذي يجعل الحق فوق كل شي . ويجعل من الخسران عدم الاستمساك به . وعدم الصبر على مرارته . وعدم الجهاد والتضحية في سبيله . وسبب التباس الامر وغموضه على أولئك الكتاب أن الرافضة كانوا يظهرون في كل جيل باسم جديد وأثواب جديدة مضيفين

الى أمراض تقاليدهم . ووراثات بيآتهم ونحلهم القديمة . الكثير الكثير . ولكن على الرغم من كل ذلك . ظلت أمراض الاساطير والطفيليات . واضحة للدارس المتعمق المتتبع تسرب عدواها واطراد نتائجها . وتسلسل مآتيها وتتابع ظهورها في مواطن واختفائها في مواطن . حسب سلطان البواعث وتأثير الظروف والمناسبات .

والذي نحاوله في بحوثنا هذه الموجزة . عن السبئية الذين اندسوا بين الشيعة حينا . وبين أهل السنة أحياناً . هو أن نشير الى مواطن أصل الداء . وسريان أوبائه . وكيف كانوا يطلعون باسم الكرامية او المخطئة أو الخطابية او الخرمية ... وأن نشير الى أن هؤلاء هم الرافضة فحسب . وأن فرقهم بلغت الثالثة والسبعين . وكان أعشار الشيوخ من عوام أهل السنة . يضيقون بالحديث الذي فيه ذكر هلاك الثلاث والسبعين فرقة . وينظرون يميناً وشمالا . فلا يجدون أمامهم الا فرق الشيعة . كالجعفرية والزيدية والاسماعيلية (١) والعلوية والموحدين ... فيتنفسون الصعداء ويقولون : الحمد لله وجدناهم هؤلاء هم . كما كان أعشار الشيوخ من عوام الشيعة . ينظرون يمينا وشمالا ، فلا يجدون أمامهم إلا أهل السنة ، كالمالكية والشافعية والحنفية والأوزاعية والطبرية ... فيقولون : اذ لم يكن هؤلاء هم المقصودين من الحديث فيكون الحديث موضوعاً .

---

(١) منهم نزارية وبهرة الهند ، ومكارمة اليمن ، وشافعية مصياف وقدموس في سورية ، وقد خال مؤلفوا كتاب « تاريخ التشريع الاسلامي » ص ٢٢٩ كما خال محمد كرد علي في كتابه خطط الشام . أن جميع هؤلاء اتباع آغاخان .

وكم كانت تظلم الدنيا في أوجه هؤلاء المشريين ، ويشفقون على جهنم من أين يأتون لها بفرق ، يغذون بها لظاها، إذا سمعوا أقوال أئمة آل البيت النبوي المطهر ، وأعلام المجتهدين ، الدالة على نجاة جميع المؤمنين بوجود الله عز وجل ، وكتبه المقدسة وأنبيائه جميعاً صلوات الله وسلامه عليهم ، مساكين تظلم الدنيا في أوجههم!! ويضيقون بها وتضيق بهم، حين يسمعون بنجاة الجميع ، ولا يسعهم أخيراً إلا أن يضربوا بأقوال الأئمة والمجتهدين صفحاً ، وينفثوا مخاوف جهنم منذرين مهددين بعضهم بعضاً ، لأنهم لا يستطيعون أن يدعوا جهنم خالية تندب حظها ، كأن الله أوكل اليهم تدبير أمرها . وقد شغلتهم هذه المسئلة ، عن مثل القرآن العليا ؛ ولولا أن الله ألهم الأستاذ الكبير محمد بدران أن يبحث عن حل ، لظل المشريون على الحال التي ذكرنا، ألهمه أن يطوف في مكاتب العالم، وأن يدرس المخطوطات القديمة ، حتى التقي في مكتبة برلين بعلامتنا البغدادي ، وتحدث اليه في شأن الفريقين المتبادلين التكفير ، خشية إقفار جهنم، فابتسم العلامة الكبير وهدأ روعه قائلا : أنى يكون الاقفار وهناك عشرون فرقة من السبئية، وعشرون من الخوارج ، وعشرون من المرجئة ، وعشر من القدرية ، وثلاث من الكرامية (١) . فهؤلاء يا بني الذين ذكرتهم للناس منذ الف سنة ، هم فرق الروافض الذين تركوا تعاليم الوحي، وهم المقصودون من الحديث الشريف. فحمد الله الاستاذ بدران على نجاة فرعي الاسلام المجيدين السنة والشيعة ، بل ضاعف حمده حين قال له : وليس بينكم شخص واحد من الروافض

(١) الفرق ١٩ .

اليوم ، الجميع ثابوا الى العلم ، الى الحق ، الى جلال الوحي ، فما يصم شخص منكم آخر ، بأنه من أهل النار ، إلا باء بها .

* * *

والآن فهم قراؤنا حقيقة الروافض ، والذي نراه واجباً أن يتأكدوا من أمراضهم وينسبوها اليهم ، وكم من جريرة نرتكبها ، حين ننسب مرضاً أبل منه أهله ، وانفكوا عنه منذ أزمان بعيدة ، كمرض المخطئة وتحريم لحوم الابل ، الذين نسبها الدارسون السطحيون الى الجعفريين ، أتباع سيدنا الامام جعفر الصادق رضي الله عنه ، على أن الكتاب الذين لم تمتد بهم آفاق المعرفة ، الى الاحاطة بكل مذاهب الروافض ، هم الذين سمعوا بالجعفريين وسمومهم القتالة وأساطيرهم ، فظنوهم اتباع الامام جعفر الصادق ، ولم يعلموا أن هناك جعفريين ينتمون الى جعفر بن حرب الرافضي ، الذي رد عليه علامتنا البغدادي في كتابه «الحرب على جعفر بن حرب» مستقصياً خرافاته وأباطيله التي كان ينفثها بين أتباعه ، وجعفريين ينتمون الى جعفر ابن بشر الرافضي الذي أباح الخمر والزنا ... وشتان ما بين هذين الجعفرين الرافضيين الهدامين (١) ، الذين لا يحملان للانسانية إلا الطوية السوداء ، والنوايا المنكرة ، وبين علم أئمة آل البيت النبوي المطهر ، سيدنا جعفر ابن محمد الصادق الذي كان مناراً للاسلام شاهقاً ، وشمساً مشرقة وضاءة ، وكوكباً منيراً هادياً . ومن هنا جاء الخطأ في نسبة أمراض الروافض

---

(١) راجع الفرق ١٥٤ و ١٥٥ .

الجعافرة ، الى الشيعة الجعافرة . !!

وكما نسب أولئك الكتاب السطحيون ، أمراض ابن حرب وابـن بشر الرافضيين ، الى الشيعـة أتبـاع الامام جعفر الصادق ، نسبوا عبادة العجول ، واستباحة الأعراض في الخلوات الى الشيعة الموحدين (١)، حتى قرأنا في دائرة معارف وجدي ، نسبة مثل هذه الأخطاء الباطلة اليهم(٢)، وما أذاع اولئك الكتاب ما أذاعوه رجماً بالغيب ، إلا ليصغروا من أمجاد الموحدين الاسلامية الخالدة ، منتهزين فرصة الكتمان لديهم ، سبيلا لطرح أمراض البيانية والخرمية والبابكية والجعفرية البشرية عليهم، ناسين أن ذلك الكتمان ، كانت له ظروفه الخاصة في عهد الفاطميين ، لأن الموحدين الذين جاؤا من مصر كانوا يحملون المذهب الاسماعيلي الفاطمي الاسلامي، ويدعون الناس اليه ، والى تأييد خلفائه ، ورغم الكتمان ما كاد يتسامع بهم مؤيدوا لدعوة العباسية ، من الامراء والاقطاعيين في دمشق وإنطاكية ، حتى اشتبكوا معهم في معارك وادي التيم والجبل الأعلى المشهور (٣) .

كما أن السبئيين الذين ألهوا أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه ، وقالوا :

---

(١) الموحدون من أنبل الفروع الاسماعيلية الفاطمية الاسلامية، جاؤا بالمذهب على يد حمزة بن علي الذي كان يلقي محاضراته في الازهر، وله جهاده النبيل عن عقيدة التوحيد وعن صاحب الرسالة الاسلامية ، صلى الله عليه وآله وسلم، وسنفصل ذلك في الكتاب الثاني كما نفصل أعمال عبد الله التنوخي دفين عبيه ، الذي اقام المساجد في جبل قرى الشوف متتبعين سير رجالاتهم المنتشرين في الحجـــاز واليمن ومصر والمغرب والمهجر .

(٢) ٤ - ٢٨ .

(٣) كان ذلك عام ٤٠٤ و ٤٢١ هـ .

إنه في السحاب والرعد صوته ، مما اضطره أن ينفي زعيمهم ابن سبأ الى ساباط (١) ، لم يبق منهم اليوم شخص واحد ، ونسبة أقوالهم الى الفرع الاسلامي العلوي ؛ هي نسبة خاطئة مجرمة ، ليس لها أصل ، اذ هؤلاء مسلمون جعفريون إمامية فحسب . ولو أن أولئك الناسبين قرأوا كلمة علامتهم الكبير الشيخ احمد سليمان ، لما خالوهم بقايا السبئية الرافضة وهي : « أمة توالت عليها النوائب الاجتماعية طيلة خمسة أجيال ، فانزوى علماؤها وصلحاؤها ، وعاث الجهل في عشائرها فساداً ، لا فرق بينهم وبين الامامية ، وشيخ مذهبهم الذي ينتمون اليه — الخصيبي — من رجال الامامية . . . وأشهد بالغرض والتغرض على غالب المؤرخين الذين كتبوا عنهم » (٢) ومن أجل جهل واقع المعرفة ، التي يندبها هذا العلامة في الدراسات الدينية ، وضعنا مؤلفاتنا لتكون عهداً جديداً في تلك الدراسات .

على أن ما أشار اليه هذا العلامة من مرض طارىء ، قد عالجه سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية بأعماله ، إذ جعل هدف معهده الشرعي الذي أسسه في لبنان « كلية فاروق الأول الشرعية » (٣) هو تحرير عقول الطلاب بالمعرفة ، والدراسات الحديثة الواسعة واللغات ، فاتحا مصراعيه لكل أبناء الفروع الاسلامية ، ليحملوا روح الوحي الاسلامي الحق ، الذي هو جوهر الوحي الآلهي

---

(١) الفرق ص ١٥ .

(٢) الخطط ٦ - ٢٦٨ .

(٣) أسست عام ١٣٥٣ ولا تزال تطرد وتلقى العطف من الحكومة اللبنانية والمصرية ، لما تحمل من مبادىء إنسانية كريمة ، ولون من الدراسة فريد .

في كل الأديان، وروح الانسانية والسلام والحب العام .

وقد عقد هؤلاء العلويون الجعفريون الامامية الاكارم ، مؤتمرهم المشهور في القرداحة ، برياسة المجاهد الشيخ عيد الخيّر ، وردوا مفتريات عبد الله بن سبأ التي لا يزال بعض الكتاب السطحيين يوصمونهم بها ، وقد طبعت (١) جمعية الشبيبة العلوية الاسلامية جملة قرارات هذا المؤتمر ، بعنوان « العلويون مسلمون » .

ونحن يؤسفنا في هذا المقام ، أن كتاباً يرتدون أثواب العلماء والفلاسفة ، ويغمسون أقلامهم هنا وهناك في شتى البحوث ، قبل نضج الدراسة العلمية والاستقراء الكامل ، يسقطون في ما سقط به العامة ، فينسبون أمراض الرافضة ؛ الى الشيعة والسنة .

وهؤلاء الكتاب تعجلوا في إذاعة بحوثهم ،وسنعرض أخطاءهم — عما توفر بين يدينا من تحقيق — في الكتاب الثاني تحت عنوان « أخطاء تذاع » والذي يتبادر لنا أن هؤلاء الكتاب الذين تناولوا بأقلامهم فرق الشيعة،غمّ عليهم بين اسم الرافضة الذي اطلقه الامام زيد على الفرقةالسبئية التي اندست بين رجاله ، وبين أسماء الشيعة كالامامية والاسماعيلية والزيدية والعلوية والموحدين ، فخالوا اسم « رافضة » . اسما عاماً يرادف اسم شيعة ، متخبطين في عشواء أقوال الذين كانوا إذا أرادوا أن يتحاملوا في الردو التشهير على فرقة ما ، أطلقوا عليها اسم « رافضة » . وهذه النسبة الخاطئة في الصاق الرفض بالشيعة المحبين لآل البيت النبوي ، هي التي جعلت الامام محمد بن

(١) في « ريودي جانيرو » البرازيل عام ١٩٣٦ .

إدريس الشافعي يرد على أولئك المخطئين في تلك النسبة بقوله .

إن كان رفضاً حب آل محمد   فليشهد الثقلان أني رافضي

* * *

ألآن نأكد لقرائنا أن إطلاق كلمة رافضة على عبد الله بن سبأ وفرقته، كان منذ اليوم الذي زعم فيه نبوة الامام ، لأنهم بهذا الزعم ، رفضوا الاسلام الذي هو حقيقة الاديان السماوية ، وإن كان بعض باحثي هذا الاسم (١) يرون أنه أطلق عليهم عام ١٢٢ هـ حيث اندسوا بين رجال الامام زيد وأخذوا ينفثون سمومهم في جيشه (٢) ، رجاء أن يجدوا الفرصة التي بها يبثون عقائدهم الملتوية الباطلة ، وفعلا تركوا الامام رضي الله عنه في هول المعركة . حين اطبقت عليه الجنود من كل صوب ، قائلين : «لا نقاتل معك حتى تتبرىء من الشيخين »= أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فغضب وأدرك أنهم يحملون شروراً وآثاماً وفتنا ، وأنهم ما التحقوا به إلا لينفثوا بين رجاله تلك الشرور والآثام والفتن ، فرفض نصرتهم وآثر الموت على موافقتهم ، فانفضوا من حوله ، وانفض معهم كثير ، وياليتهم ثبتوا وقتلوا ، وأراحوا الناس مما نبشوا من أساطير الأقدمين، وأقاصيصهم، وما دسوا من طفيليات ووضعوا من خرافات ، ما زلنا الى اليوم نرسف في شرورها ، ونتلظى بمرارتها في حلوقنا ، ونتحسس ندوبها متغلغلة في أعماق قلوبنا .

وقد حققت الأيام نظرة الامام زيد فيهم ، فما لبثوا أن زيفوا الحق

---

(١) العقد الفريد ١ — ١٨ .

(٢) راجع تفسير الجواهر ٣ — ٢٠١ و ٢٠٢ .

وألبسوا وجه الصبح السافر ، جلبابا من حلك نفوسهم . فاحتالوا لاذاعة مبادئهم المسمومة بسلاح المغالاة في حب آل البيت،وبالاحرى حين وجدوا أعلام السنة والشيعة يبكون الامام المطهر « زيداً » ويندبون حظوظه العاثرة.ويأسفون لفقده ، فكانوا يندسون بينهم لابسين لكل فرقة لباسها، راوين عن لسانه تلك الفرية التي طردهم من أجلها،ورفض نصرتهم،أجل زعموا أنه قال عن الشيخين « هما قتلاني » وقد خفي هذا التلبيس على كثير من الكاتبين في عصرنا ، فتنادوا به في كل مكان ، ولم يفطن له إلا القليل الذين أفدنا منهم هذه البحوث القيمة ، كما خفي على بعض القدامى، كالفيروزبادي صاحب القاموس حيث قال : « الرافضة فرقة من الشيعة » . . . لا لشيء إلا أنه رآهم في جيش الامام زيد ، ولم يفطن الى أنهم ما اندسوا فيه إلا للفتنة والاغواء ، كما فطن الى ذلك زيد نفسه،وهذا ما يذكرنا بحديث بعض العامة القرويين حين شاهدوا جيوش « غورو » وهي تدخل دمشق، وبينها فرق المغاربة ، وعلى رؤوسهم العمائم الصفراء والبرانس الفضفاضة ، فاعتقدوا أن الفرنسيين مشايخ . ! !

ولا نكتم إخواننا أننا انتفعنا في كثير من المواقف الغامضة حول سلسلة الأحداث الملتوية . والمذاهب الدخيلة على الاسلام بكتابات المستشرقين المتبتلين لاذاعة العلم والمعرفة وتحرير الواقع (١) لا سيما كتاب

---

(١) تمتاز كتابات المستشرقين بالبراعة في استقصاء الحوادث التاريخية ورجال المذاهب والنحل ، ومعرفة أزمان نشوء الفرق ودراسة الخطوط الاثرية التاريخية وأسانيدها العلمية القطعية أو الظنية أو الوضعية ، ولكنهم لم يستطيعوا بعد — على سعة معارفهم — أن يستنبطوا أهداف الكتب السماوية ، ومثلها العليا ، كما هي في

« العقيدة والشريعة » .

متاولة و نخاولة

يسرنا أن نلفت نظر قرائنا في هذه المناسبة ، أن هناك أسماء موضعية خاصة ، لبعض فروع الشيعة والسنة (١) كالنخلية المطلقة على شيعة أهل المدينة المنورة فحسب ، والمتولية المطلقة على شيعة لبنان فحسب .

أما شيعة لبنان فقد طرأ عليهم هذا الاسم حين أحسوا في مواطنيهم هزال الروح الانساني والقومي ، الذي من شأنه أن يؤلف بين نفوس المواطنين ، ويجمع ذات بينهم بالمودة والاخلاص والثقة ، لو كانوا أحياء ، ولو كانوا أحياء لما هزل . وقد تبينوا فعلا أثر هزاله القتال ، في انحطاط العقلية الاجتماعية ، وموت الوحدة الوطنية العملية الصادقة التي بها سعادتهم جميعاً .

أجل رأوا ذلك بادياً في جفاء مواطنيهم لهم ، وسوء رأيهم فيهم ، فاضطروا أن يتولى بعضهم بعضاً . ليدفعوا عن أنفسهم شر انحطاط العقلية الاجتماعية ، في إخوة لهم أفسد طويتهم الجهل ، وترك هدى الوحي الالهي والانصراف الى الطفيليات ، فدعاهم أهل المعرفة «متولية» والعامة لانحراف السنتهم « متاولة » (٢) .

الواقع ونفس الامر ، ولو فعلوا ذلك ، لاهتدت الانسانية الى الوحدة الدينية ولمستها لمس اليد ، ولسعد الناس بالمحبة والثقة والسلام الذي يبكرون فقده .

(١) مــــن فروع السنة ذات الاسماء الموضعية « العدوية » وسنتحدث عنهم في الكتاب الثاني .

(٢) كان ذلك عام ١١٠٠ هـ حسب تحقيق العلامتين أحمد رضا ومحسن الامين ، راجع أعيان الشيعة ١ ـ ٢٣ .

وقد هجر المثقفون هذا الاسم ، إذ تساوي الجميع أمام الحق ، وثابوا الى الروح الانساني والوطني ، شأن البشر الأحياء في العالم .

وأما شيعة المدينة المنورة،فهم بقية الأنصار الكرام،الذين لم يغادروها، لأنهم كانوا يشرفون على الفلاحة وتنسيق النخيل، فنسبوا الى النخلة ،وقد كانوا بضيق شديد حيث لم يسمح لهم جهلة « الباشوات » بارتداء الألبسة العامة ، بل فرضوا عليهم العمائم الحمراء، واللون البرتقالي من الثياب،وامتهان الحرف الحقيرة ، كما خصصوا مدافنهم.

وفكرة تخصيص المقابر ، مرض أسطوري مزمن ، إذ دخل على البرهمية بعد انقسامها،فكان كل فريق،يأبى أن يشاركه الآخرين في مراقدهم الأخيرة ، لأنهم يعتقدون أن مسالك الجنة هي من أجواف المقابر ، و كل منهم يرى الجنة له وحده ، فيحذرون أن يتسلل بينهم من ليس منهم ، إذا قاموا لدخولها ، ولعلهم يعتقدون أنها تضيق بهم إذا شاركهم أولئك المنبوذون المساكين ، والواقع أنها لا تضيق ، لأن رحمة الله تسع الجميع ، ولكن أنفسهم هي الضيقة الجامدة .

والنخلية الجعفرية اليوم ، قد رفعت عنهم تلك الأغلال . ومنحوا كل حقوق الانسانية العليا،التي فرضها الله للناس كافة في القرآن المجيد،فأنشئت لهم المدارس الحديثة ،وأصبحوا يشاركون إخوانهم في كل شيء، شأن السلف الصالح ، لأن الحكومة السعودية لا تعترف بغير قدوة السلف والسير على منهاجهم ، والحكم بتسامح الاسلام . وقد افدنا ذلك من معتمد المعارف في المدينة المنورة الاستاذ الشيخ محمد الدفتردار .

وتدلنا الحوادث التاريخية ، أن الناس ما اعتادوا بعد انحطاط العقلية وفقد الاجتهاد المطلق (١)،أن يبصروا من يتسع عقله وقلبه وضميره، لدائرة اجتهادات المجتهدين العامة الاسلام، المنضوية تحتها كل دوائرهم الخاصة،مقدراً جهودهم جميعاً فاهماً حسن نواياهم وكبير إخلاصهم، واستمساكهم بالأصول اليقينية القطعية ، آخذا بما يحسن في عينيه من مذاهبهم ، مع احتفاظه باسم مسلم،ولكن اعتادوا أن يشاهدوا أشخاصاً ذابوا في دوائر الفروع ذوباناً، حتى تقاذفت بهم تيارا تها فتناسوا منابعها الأولى ،وأصولها اليقينية ومصادرها متخذينها شعاراً وسمة لهم . بل تناسوا أنهم مسلمون قبل كل شيء وبعد كل شيء . فاذا شاهدوا من ينزع بعقيدته منزع السلف في أخذهم بالأصول والتخير في الفروع،نسبوه الى سوء الطوية،إذ يسمعون منه غير ما اعتادوا سماعه من أعشار الشيوخ ،فيتخيلون قوله اختراعاً، بل فسوقاً وكفراً . وقديما قال سيدنا علي بن أبي طالب: « الناس أعداء ما جهلوا » .

هذا الضيق في العلم ،والتزمت في النفس ،والتخاذل في العقلية،ونسيان الكل من أجل التفاوت في البعض، هو ما جعل إمام دار الهجرة«مالك بن انس » يتخوف من فرض مذهبه على الجماهير الاسلامية حين أراد المنصور والرشيد ذلك ، خشية أن يخالوه هو عين الاسلام ، وأن سواه فسوقاً وكفراً ، وهذا شأن الأئمة جميعا .

وقد ادرك علماء الاسلام المحققون القدامي ودارسوه المتعمقون كل

---

(١) بقي قلة من رجال العلم أشرفوا على منازع المجتهدين في دوائرهم التي خطوها لانفسهم ، لا سيما الزيدية والجعفرية حتى اليوم لديهم المجتهدون .

ذلك ، فها أنت ذا تسمع ابراهيم بن موسي اللخمي الغرناطي المعروف بالشاطبي ، يشكو ما لاقى من جهل الناس وتطفلهم ، وملقهم للملوك ورجال السياسة . فكان اذا تجنب ذكر أحدهم في خطبة الجمعة، لا ... لأنه سياسي يحب هذا ويبغض ذاك ، ولكن ايثارا لشرف القدوة برسول الله وأصحابه الأعلام حيث لم يكن من شأنهم الدعاء لرجال السياسة والملوك على المنابر ، أقاموا الدنيا حوله وأقعدوها متهمينه بالخروج والثورات ، كما كان اذا زجر بعض المتاجرين باسم الدين والتصوف ، الذين لم يكن من طبيعتهم طهر الطوية ، واخلاص العبادة، وحسن التوجه الي الله ، الا حيال الجماهير ، وهم يخالفون نصوص الكتاب الكريم والسنة باسم التصوف الذي يرتدون لباسه مقلوبا . أذاعوا عنه أنه عدو الأولياء (١) ...

أجل يشكو ويتعزى بما ذكره الحافظ عبد الرحمن، أنه كان اذا دخل بلدة من بلاد الاسلام ، واخذ يتكلم بكلام الله ورسوله ، سمع من الناس أشياء غريبة، فان ذكر لهم من الكتاب والسنة غير ما اعتادوا سماعه ومعرفته ، سموه خارجياً ، وإن حدثهم بفضائل آل البيت النبوي المطهر عدوه شيعياً ، وإن روى لهم من فضائل أبي بكر وعمر ، زعموه ناصبياً ، وان لم يجب الا بما يتبادر من معنى الآية والحديث عدوه ظاهرياً، وان تعمق في مدلول الألفاظ زعموه باطنياً يصرف المعنى عن مقاصده ... وقد احتار في أمره وأمرهم كثيراً ، ولم يجد أشرف من الاستمرار على اداء

(١) توفي الشاطبي عام ٧٩٠ هـ .

الواجب الحتم ، مع الاحتمال والصفح وطلب المغفرة له ولهم (١) .

ومتى وصل أهل العلم الى صميم المعرفة ، واستوعبوا مثل القرآن العليا، لم يعودوا يحملون حقداً لأحد ، ولم يكترثوا لمحمدة أو مذمة ، ولم يحجموا عن السعي لخدمة الانسانية ، وتوجيه الخلق الى الله . والويل كل الويل ، اذا انحطت العقلية ، وخمدت القريحة ، وجمدت النفس ، فهناك البلاء المضاعف والفتنة العمياء وهناك الموت والدمار ، وهناك انتحار الدين والانسانية .

* * *

وكم يسرنا أن نختم بحوثنا بالقصة التالية :

تحدث الينا صديق قضى في اليمن ردحاً من الزمن ، وشاهد ثورات الزيدية والشافعية وقد انتدب ليدرس بواعثها وأسبابها ، فاذا هو يسقط على الحقيقة، اذ وجد وقْد الفتن من جهل أعشار الشيوخ بمثل القرآن العليا،وقد سمع حديثا يدور بين شيخين كانا في نظره - كما يقول - أمثل من يعرف هناك ، لما يجد بينهما من مودة على اختلاف فرعيهما، وكم كان يتمنى أن تنتقل هذه المودة الى أتباعهما . المساكين المختلفين سمعهما يتساران بالحديث التالي

— ألا يجدر بنا أن نفهمهم أنهم اخوة ،يسكنون وطنا واحداً وتظللهم سماء واحدة ،ويجمع كلمتهم وحي واحد « واعتصموا بحبل الله جميعاً » فكم من نساءٍ رُملت وأسر تداعت . واثمُ ذلك راجع الينا .

— دعهم دعهم فهم أهل لكل شقاق وشتات ،لأنهم لا يحملون لنا المودة ولا يعطوننا ما نستحقه من أجر ، فاذا فهموا أن الوحي يجمعهم

---

(١) راجع هذا البحث في « الاعتصام » ١ — ١٩ .

اكتفوا بأحدنا .

— ولكن كيف نلقى الله وحالنا معهم ما تعلم من فتن وتمزيق وخلاف .

— لا لا ، لا تمزيق ولا خلاف ، هم المسئولون عن تمزيق أنفسهم ؛ وما لنا من أثر الا أننا تركناهم على حالهم وسرنا مع أهوائهم .

— بل نحن المسئولون أمام الله والانسانية والحكومة ـ لو كانت تدري ـ ، أما علمت أن رسول الله هدم مسجداً شيدة المنافقون ارصاداً لتمزيق الكلمة وفتنة للناس عن الهدي أجل هدمه وهو مسجد !! فكيف حالنا ونحن الذين أغرينا بينهم العداوة والبغضاء ؟ .

— هل تعتقد لو تركناهم على حالهم يجتمعون ؟ .

— طبعا طبعا يجتمعون فهذه الحيوانات تسير مجتمعة متعاونة ، فهل يكون الانسان اقل من الحيوان عقلا وفكرا ونفسا وضميرا ؟ .

— وكيف نعيش اذا اجتمعوا ؟ ! ! محال ان نفهمهم الحقيقة

* * *

فاذا ذلك المبعوث يظهر فجأة بينهما قائلا :

— لعيشكما وهم مجتمعون أرغد وأسعد من عيشكما وهم مختلفون ، لأن لحوم البشر لا تغذي الاجسام يا أخباث ! !

كلمات حول الكتاب

كان مثلنا في هذا الكتاب ، كمثل الروائي الفرنسي الشهير « برناردين » حين أتمّ تأليف روايته « الفضيلة » ،طاف يعرضها إلى الشيوخ تارة ،وإلى الشباب أخرى، وإلى العجائز طوراً ، وإلى الشابات أحياناً ، فاذا هي تستمطر الدموع ، وتثير التأوّهات ، وتبعث على الاشفاق والعاطفة الانسانية الكريمة .

وهكذا عرضنا مؤلفنا على الجميع ، فاذا هو يلقى حماسة فائقة ، وإكبارا لما يحمل من دعوة إنسانية كريمة ، وارتياحاً لروح الاسلام الاجتماعية المتجلية في كل بحوثه ، وكان من نتيجة عرضنا للكتاب ، أن توفر لدينا كلمات لطائفة كبيرة ، من عباقرة العلماء ، المتخصصين في دراسات المذاهب الاسلامية وأصولها ، آثرنا أن نشير إلى بعضها هنا ، وندع سائرها للأجزاء الآتية .

كلمة العلامة المجتهد السيد محسن الأمين

« اطلعت على هذا الكتاب ، الذي وضعه الاستاذان الفاضلان ، الشيخ هاشم الدفتردار المدني ، والشيخ محمد علي الزعبي ، وقصدا به الخير . وفق الله مسعاهما ، ونفع المسلمين بارشاداتهما ، فوجدتهما قد بذلا في ذلك جهداً كبيراً ، وأتيا بشواهد كثيرة لما قصدا له . وعندنا أن أفضل عمل يُجْهَدُ في سبيله ، هو السعي لتأليف القلوب ، وإزالة الاضغان بين أهل المذاهب أو تخفيفها ، إذ هي مبنية على أمور لا حقيقة لها ، وإنما هي من تسويل شياطين الجن والانس ،مما يمجه العقل السليم، وينهى عنه القرآن العظيم ،والشرع الكريم . نسأله تعالى التوفيق للأخذ بما فيه رضاه ، وتجنب ما يسخطه ويأباه ، إنه مجيب لمن دعاه ...

. . .

كلمة العلامة السيد محمد صادق الصدر ، رئيس مجلس التمييز الشرعي الجعفري في بغداد

بعد ان درس الكتاب درساً دقيقاً قال فيه كلمة مستفيضة سننشرها في الأجزاء الآتية جاء فيها ما يأتي :

« قد طفت الكتب والمؤلفات الحافلة بأنواع وشكول من المهاترات ، لا تليق بأنصاف المتعلمين فضلاً عن العلماء والباحثين ، ووقعت من جرّاء ذلك بين أهـــل المذاهب في مختلف العصور ، سوّدت صحائف من التاريخ كانت جـــديرة بأن تزخر بالانسانية واجتماع الكلمة ، والهدى والأعمال الناصعة الخالدة ، متناسين جهاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، في لم الشعث وتوحيد الصفوف وجمع الكلمة ، بل متناسين قول الله تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله اتقاكم » وقد خالوا أن الخلافة والامامة تصدع كلمة المسلمين وإنْ تقادم عهدها، وليس صحيحاً ما يقولونه ، فان كان الصديق رضي الله عنه خليفة المسلمين الذي باشر أعمالهم الادارية والسياسية وسوى ذلك ، فان علياً عليه السلام كان إمامهم ، الذي يباشر الفتوى ، وسوى ذلك من استنباط الاحكام واستخراج المسائل ، وإذا أردنا أن نقول ذلك بلغة العصر ، فأبو بكر كان يحمل لواء السلطة التنفيذية وعلي كان يحمل لواء السلطة التشريعية ومن هنا قال عمر رضي الله عنه كلمته المشهورة « لولا علي لهلك عمر » .

ولو فطن المسلمون إلى هذا الحل لما اختلفوا أبداً ، على ان اختلاف المذاهب في المسائل الاجتهادية لا يفسد الوحدة الجامعة . فان الاختلافات المذهبية ليست إلا مسائل فرعية ، دعا اليها الاجتهاد في الرأي ، وقد قلت ولا أزال أكرر قول شوقي

« اختلاف الرأي لا يفـــسد للود قضيـــة »

على اني وجدت في الاستاذين هاشم الدفتردار المدني ، ومحمد علي الزعبي ، مما أرجوه في أهـــل العلم من فهم جلال الدعوة ، إلى الاتحاد والألفـــة . والحب الانساني العام .

وان كتابها الجليل « الاسلام بين السنة والشيعة » لخير دليل على روحها الوثابة وجهادهما المشكور ، في سبيل الوحدة ، وشد الأزر ، وإني أحث المعنيين بالبحوث الدينية الاجتماعية على اقتناء هذا السفر القيم ليقرؤا البحث الحر والاستنتاج الصحيح والانصاف « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

• • •

كلمة الاستاذ الشيخ محمود إبراهيم طيرة مدير كلية فاروق الأول الشرعية في بيروت ومندوب الحكومة المصرية

« يبدو لي أن المؤلفين يعملان لتحقيق فكرتين نبيلتين عظيمتين، فكرة الجامعة الانسانية التي نشدها القرآن الكريم في قوله « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » فالآية الكريمة تنادي الناس من جميع الأشكال والألوان والمذاهب والأديان واللغات واللهجات ، بأنهم إخوة في النوع وشركاء في الجنس ، يرجعون على كثرتهم إلى أب واحد وام واحدة .

نعم الانسان أخو الانسان قبل أن توجد الأديان . وما ارسل الله الرسل وأنزل عليهم الكتب السماوية والشرائع الالهية ، الا ليوثق عرى الأخوة بينهم ، ويدعم هذا المعنى الانساني في نفوسهم ، ويشد بعضهم إلى بعض برباط محكم مكين ، ألا وهو حبل الله المتين ، فأية داهية أدهى ! وأية مصيبة أنكى ! وأي بلاء أشد من أن تنعكس الأوضاع وتنقلب الآية ، فتصبح الأديان مصدر شقاء وبلاء وعداوة وبغضاء وفرقة وخصام وأهواء وفتن ، وليست الأديان – على تعددها – إلا طرقاً للوصول إلى الله ، فكل يسلك الطريق الذي يراه أقوم وأسلم ، فعلام الخلاف ؟ وفيم الفرقة ؟ وإلام الخصام ؟ أوليس القرآن الكريم يقول « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » أو ليس الانجيل المقدس يقول « المجد لله في الأعالي وعلى الارض السلام وفي الناس المسرة » .

أما هدفها الثاني، فهو الدعوة إلى اجتماع كلمة أهل المذاهب وتفاهمهم وتعاونهم، تلبية لنداء الله « واعتصموا بحبل الله جميعا » فالمسلمون على اختلاف مذاهبهم يجمعهم دين واحد ويسعدهم قرآن واحد ، فياليت شعري هل يصح في الأذهان أن تكون اختلافاتهم المذهبية في الفروع لا في الأصول سبباً في تنافرهم وتقاطعهم وتفرقهم ، اللهم إن هذا لا يتفق مع سمو الاسلام الذي يتفيئون ظلاله .

وان آل بيت النبي الكريم ليسو للشيعة وحدهم وليسو للسنيين وحدهم، وانما هم لكل من يقول : « لا إله الا الله محمد رسول الله » نحبهم ونحترمهم ونعتبرهم المثل

العليا والأسوة الحسنة والقدوة الطيبة . وكيف لا نحب من كان رسول الله يحبهم .

حب آل النبي خالط قلبي كاختلاط الضيا بماء العيون

. . .

كلمة العلامة الاستاذ الشيخ محمد خليل الزين خريج معهد النجف الأشرف

اجل ، إن هذا الكتاب « الاسلام بين السنة والشيعة » الذي ألفه الصديقان . . . هو يحقق مبدأ الاسلام السامي الذي تصوره كثير من اعلام الأمة ، وحملة العلم من الذين يؤمنون بقوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ايمانا عمليا منتجاً صادقاً ، وقد تصفحته درساً ونظراً فلم أجد فيه غير ما كان يعمل له أئمتنا الأعلام من الألفة والتعاضد ، والأخذ بهدى خاتم الانبياء نبي الانسانية ، محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ورأيي الخاص في هذا الكتاب ، هو أنه ليس لأمة دون أختها ، ولا لأهل وحي دون وحي ، بل هو للأمم جميعاً ، ولأهل الأديان السماوية كلهم ، فهو دعوة إنسانية عملية واقعية صادقة إلى الايمان بكل وحي سماوي أنزله الله إلى رسله صافيا وضاء مشعا ، وقد جاء هذا الكتاب كما يرغب الخالق من عباده ، ورسل الله من أممهم . وإني اعتقد أنه سيلاقي تأييداً وانتصاراً ، في نفوس العاملين المصلحين الذين يحبون خير الانسانية وهداها وسلامها .

الصواب

صفحة	سطر	صواب
١١	١١	منضوين عن رضي
١٤	[illegible]	وخبر
٢٠	١٤	لهداية
٢٤	١٩	أروقة
٣٤	١٣	أعطى
٤٧	١٢	عاملة
٤٨	٢٠	أحد
٥٠	٦	الأغمار
٦٢	٦٦	[illegible]
٦٣	٣٨	سوء
٦٦	١٩	إنه الحق
٧٠	١٤	المطلع
٧٢	٩	سعادة
٧٥	١٨	والغاية
٧٦	٦	كنه
٧٩	١	تأمرنا
٩٧	١٥	لأئمة
١٠٧	١٢	عاد
١١٣	٨	هو الخالق تعالى الله

الفهرس